أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام

د. علي بن محمد الحمود
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام

د. علي بن محمد الحمود
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يعدُّ أبو تمام في طليعة شعراء العربية، فهو شاعر موهوب يجمع بين الطبع والصنعة، ولا شك في ذلك، لكنه في الوقت ذاته شاعر صنعة، يبحث عن التجديد في الصور والمعاني . وهذا البحث وقف عند خطابه الشعري المنفتح على القرآن الكريم ، والمعبر عن مكونات شخصيته وثقافته المتنوعة التي كان القرآن الكريم في مقدمة مصادرها. ومن هنا اتجه هذا البحث إلى دراسة أثر القرآن الكريم في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة.ووقف البحث عند ثلاث صور من صور ذلك الأثر،هي : التلميح والاقتباس والعقد .وأظهر أن نماذج التمليح في شعر أبي تمام كانت الأكثر حضوراً ، تلتها نماذج الاقتباس ،أما العقد فكان أقل تلك الصور.وبين البحث أن أبا تمام كان غالباً ما يحافظ على قداسة القرآن الكريم ومكانته ، لكن هناك نماذج لم يوفق فيها ، وقد أشار إليها البحث ، وفيها أورد أبو تمام بعض أساليب القرآن الكريم ومعانيه في سياقات لا تليق بقداسته . وأخيراً ، فإن حضور القرآن الكريم في شعر أبي تمام كان عاملاً مهماً من العوامل التي أسهمت في إغناء تجربته الشعرية ، وتزويدها بطاقات فنية وموضوعية ، ومنحها بُعداً دينياً ، وهي تجربة فريدة في تاريخ الشعر العربي : قديماً وحديثاً ، ما زالت تحتاج إلى دراسات أخرى ، تكشف عن جوانب غائبة في إبداعات أبي تمام الشعرية .

المقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيعدُّ القرآن الكريم من أهم المصادر التي أفادّ منها الشعراء العرب: قديماً وحديثاً في إغناء تجاربهم الشعرية؛ لأنهم يرون فيه الأنموذج الفريد المعجز للبلاغة والفصاحة. ومن هذه الرؤية نجد أنه قد تأثر كثير من الشعراء العرب بأساليب القرآن الكريم ومعانيه وقصصه، فانتهلوا من معينه الذي لا ينضب، محققين غايات شعرهم، من إدهاش وإبهار وتأثير.

ومن خلال اهتمامي بشعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ) [١] تبين لي أنه من أكثر الشعراء العرب تأثراً بأساليب القرآن الكريم ومعانيه، إذ بدا شعره متلبساً بالقرآن الكريم: أسلوباً وفكراً، وممتزجاً به في نماذج كثيرة.

لقد جاء خطاب أبي تمام الشعري المنفتح على القرآن الكريم معبراً عن مكونات شخصيته وثقافته المتنوعة التي كان القرآن الكريم في مقدمة مصادرها. ومن المصادر الأخرى المتعددة التي أسهمت في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة: السنة النبوية، وتاريخ العرب، وتاريخ الأمم الأخرى، وكلام العرب: شعره ونثره، والفلسفة، وعلوم اللغة والعقائد، وغيرها من المصادر [٢] التي لن يجد المتلقي كبير عناء في التعرف إليها.

ويعدُّ أبو تمام في طليعة شعراء العربية، فهو شاعر يجمع بين الطبع والصنعة، فهو شاعر موهوب، ولا شك في ذلك، لكنه في الوقت ذاته شاعر صنعة، يبحث عن التجديد في الصور والمعاني. ومنهجه الشعري يتمثل في أنه " لا يرتجل القول ارتجالاً، ولا يرسله

---

(١) ولد أبو تمام في قرية جاسم في بلاد الشام، واختلف حول تاريخ مولده، فقيل: (١٩٠هـ)، وفي رواية أخرى قيل: (١٨٨هـ)، وابن خلكان ذكر أنه ولد عام ١٧٢هـ. أما وفاته فكانت عام (٢٣١هـ).
والمجال هنا لا يتسع للحديث عن حياته وأدبه، فالمصادر التاريخية والأدبية والدراسات الحديثة أغنت هذا الجانب، وأحيل القارئ إلى كتاب: أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره) لنجيب البهبيتي. فقد غطى في هذا الكتاب كثيراً من الجوانب المتعلقة بحياة أبي تمام ونسبه وقبيلته وشخصيته وشعره. وسيجد القارئ إحالات إلى المصادر التي ترجمت لأبي تمام.

(٢) ينظر: الفن والصنعة في شعر أبي تمام: د. محمود الربداوي: ١٤٢ – ١٦٤.

إرسالاً ، وإنما يقوّمه ويثقفه ، ويتخير المستجاد منه ؛ ليذيعه بعد ذلك على الناس " [1] .

وكان في بحثه عن الجديد يوفق ، فيأتي بما لم يستطعه الأوائل ، ويخفق ، فيأتي بالشعر الرديء ، ومن هنا كان التفاوت سمة بارزة في شعره ، إنه مثل الغواص الذي يبحث عن اللؤلؤ، فيحصل أحياناً على مبتغاه ، وأحياناً أخرى لا يحصل على شيء ذي بال ، فمن شعره ما يرقى به إلى قمة الشعر العربي ، ومنه ما كان صيداً سهلاً لنقاده ، ومن الأقوال التي تجسد هذا المعنى قول البحتري عندما سُئل عن " أيما أشعر ، أنت أو أبو تمام ؟ فقال : جيّدُه خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه ، قال أبو بكر : وقد صدق البحتري في هذا ، جيدُ أبي تمام لا يتعلّق به أحد في زمانه ، وربما اختلّ لفظه قليلاً لا معناه ، والبحتري لا يختلُّ " [2] .

وعلى الرغم من كثرة الدراسات النقدية التي قُدمت: قديماً وحديثاً عن شعر أبي تمام، إلا أنني لم أقف على دراسة مستقلة درست هذا الجانب في شعره، مع الإقرار بوجود إشارات كثيرة جاءت ضمن بعض الدراسات النقدية والبلاغية التي اهتمت بشعره، وقد استعنت بكثير منها في هذه الدراسة، واستفدت منها فائدة واضحة، وذكرتها في ثبت المصادر والمراجع .

والدراسة التي أقدمها اتجهت إلى الوقوف عند ظاهرة حضور تراكيب القرآن الكريم ومعانيه في شعر أبي تمام ؛ بهدف إبراز أثر ذلك الحضور في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة،وقد رأيت أن يكون عنوان هذه الدراسة (أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام)؛ لأن هذا العنوان يحقق أهداف الدراسة ، فأنا أرغب في دراسة أثر تراكيب القرآن الكريم ومعانيه في شعر أبي تمام ، وفي التراث العربي : البلاغي والنقدي بعض المصطلحات التي تحقق هذا المفهوم، مثل : الاقتباس والعقد والتلميح ، فهذه المصطلحات من المصطلحات التي تحدثت عن عملية تداخل النصوص لكن الحديث عنها جاء ضمن الحديث عن مصطلح السرقات الأدبية [3] . وهذا الأمر – أعني ارتباط تلك المصطلحات بمصطلح السرقات الأدبية – أدى إلى ضعف الاهتمام بها ، يضاف إلى ذلك أنني لم أجد

---

(١) على هامش الأدب والنقد : علي أدهم : ١١٤ .

(٢) أخبار أبي تمام : لأبي بكر بن يحي الصولي : ٦٧ .

(٣) ينظر : التفاعل النصي (التناصية : النظرية والمنهج) : نهلة فيصل الأحمد : ٢٤٨ – ٢٥٨ .

إطاراً واحداً يجمع بينها .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن تكون الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع .

تحدثت في المبحث الأول عن التلميح ، من خلال صور ثلاث . هي : الإشارة إلى آيات القرآن الكريم. واستدعاء قصص القرآن الكريم، واستدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم .

وفي المبحث الثاني تحدثت عن الاقتباس .

وفي المبحث الثالث تحدثت عن العقد [1].

وقد ختمت الدراسة بخاتمة أوجزت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

وذيلت الدراسة بثبت للمصادر والمراجع التي استعنت بها في دراستي .

وقد استعان الباحث في دراسته بالمنهج الفني؛ لأنه الأنسب لطبيعة الموضوع . إذ قام الباحث بقراءة ديوان أبي تمام متتبعاً الشواهد التي تأثر فيها أبو تمام بمعاني القرآن الكريم وتراكيبه، ومن ثم قام بدراسة تلك النماذج وتحليليها . وإبراز السياقات التي وردت فيها .

وأخيراً . فإن ما قدّمته في هذه الدراسة لا يعدو أن يكون مجرد محاولة لتسليط الضوء على ظاهرة من الظواهر الشعرية البارزة في شعر شاعر من كبار شعراء العربية هو أبو تمام . وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد .

* * *

(١) ترتيب المباحث خاضع لكثرة الشواهد .

المبحث الأول : التلميح :

في هذا المبحث ستتم دراسة التلميح الذي يعدّ صورة من أهم صور تأثر أبي تمام بالقرآن الكريم ، وفيه يعمد الكاتب إلى صياغة نصه صياغة جديدة تشير إلى النص السابق بصورة غير مباشرة، وذلك من خلال نقل مفردة أو عدة مفردات تشير إلى نص سابق أو قصة أو شخصية أو مثل أو موقفٍ ، أو قيام المعنى اللاحق باستحضار معنى سابق . وفي هذا إقرار بأهمية النص السابق، وبوقوع الكاتب تحت سطوته .

والتلميح في اللغة بمعنى " اختلس النظر كألمح ، والبرق والنجم لمحا لمحاً ولمحاناً وتلماحاً، وهو لامح ولموح ولمّاح، وألمحه جعله يلمح ، والمرأة من وجهها أمكنت من أن يُلمح، تفعل ذلك الحسناء تُري محاسنها ثم تخفيها ... " [1] .

وأخذ " أرباب الصناعة التلميح بمعنى النسبة إلى اللمح بأحد المعاني ؛ لأن الكلام الملمح محل اختلاس النظر إلى المعنى المشار إليه ، ومحل لمع المعنى المشار إليه كلمع البرق الخاطف ، ومحل دلالة المعنى المشار إليه " [2] .

والتلميح اصطلاحاً هو " أن يُشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو شعر نادر، أو قصة مشهورة ، من غير أن يُذكر " [3] . أي من غير أن يذكر أنه إشارة إلى القصة أو المثل أو الشعر . وقد يسمى التمليح [4] . ولا يخفى أنّ منه الإشارة إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة [5] .

وفي شعر أبي تمام كان التلميح إلى القرآن الكريم حاضراً بقوة ، ومعبراً تعبيراً صادقاً عن تأثره بالقرآن الكريم الذي يعدّ رافداً من الروافد المهمة التي أسهمت في إغناء تجربته الشعرية وتشكيلها . ومن هنا فإن المتابع لشعره لن يجد كبير عناء في الوصول إلى أنه انطلق في إبداعاته من ثقافة دينية تشربت القرآن الكريم لفظاً ومعنى ، فجاء شعره ممتزجاً بذلك الأسلوب الفريد المعجز في عباراته ومعانيه ، وكان لهذا الامتزاج

---

(١) القاموس المحيط : مادة (لمح) .

(٢) الأطول : إبراهيم بن محمد عصام الدين الحنفي : ٢/ ٥١٩ .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي : ٢٨٨ .

(٤) ينظر : عروس الأفراح : : بهاء الدين السبكي : ٣ / ٤٢٦ .

(٥) ينظر : الأطول : ٢ / ٥١٩ .

أثره في منح شعره مزيداً من التوهج والجاذبية ، فبدا القرآن الكريم عنصراً من عناصر تجربته الشعرية التي كانت وما زالت من التجارب الشعرية التي شغلت النقاد العرب : قديماً وحديثاً .

وقد أشار أحد النقاد إلى ظاهرة حضور المعاني القرآنية في شعر أبي تمام قائلاً : " فالمعاني القرآنية ماثلة في ذهنه دائماً ، فحيثما وجد مقتضى الحال يتطلب ذلك لجأ إلى تلك المعاني يستمد منها ما يريد ، وينتزع منها ما يشاء ... " [1].

ومن خلال تتبع شعر أبي تمام بدا أن التلميح بصوره المختلفة كان أكثر حضوراً من الاقتباس والعقد ؛ لأن التلميح يمنح الشاعر حرية أكبر في استثمار معاني القرآن الكريم، أما في الاقتباس والعقد فيكون الشاعر أقل حرية؛ فهناك قيد الالتزام بالمفردة القرآنية ، وحركة إعرابها ، ناهيك عن قيد الوزن والقافية .

وقد اتخذ هذا الحضور صوراً عدة، من أبرزها: الإشارة إلى الآيات القرآنية ، واستدعاء قصص القرآن الكريم ، واستدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم .

أولاً : الإشارة إلى الآيات القرآنية الكريمة :

وتعدُّ هذه الصورة من أكثر صور التلميح وروداً في شعر أبي تمام ، إذ كان كثيراً ما يشير إلى آيات القرآن الكريم ، مستحضراً معانيها ، ومستثمراً ما تنطوي عليه من بيان معجز في التعبير عن رؤاه وأفكاره؛ مما أسهم في إغناء تجربته الشعرية التي كان لها حضور بارز عبر تاريخ الأدب العربي حتى يومنا هذا .

وقد تمثل استثمار أبي تمام الآيات القرآنية الكريمة في سياق الاستدلال بها على موضوعات شتى في شعره، وإصابة المعنى المراد ، كقوله :

ليس يدري إلا اللَّطيفُ الخبيرُ أيُّ شيء تُطوى عليه الصُّدُورُ ! [2]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى آيات قرآنية عدة، منها قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ (التغابن : ٤) .

استثمر أبو تمام معنى الآية القرآنية السابقة في إصابة المعنى المراد ، فجاء بيته في مطلع مقطوعة شعرية مكونة من ستة أبيات عاتب فيه رجلاً كان يلقاه بوجه كئيب ،

---

(١) الفن والصنعة في مذهب أبي تمام : د . محمود الربداوي : ١٤٤ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : : الخطيب التبريزي : ٢ / ٣٨٣ . مطلع مقطوعة يعاتب فيها عياشاً الحضرمي .

على الرغم من أن الناس كانوا يمدحونه بسبب دفاعه عن أصدقائه في غيبتهم ، فدعاه أبو تمام في مقطوعته إلى إظهار البِشْر في أثناء لقائه ، فالناس تعلم الظاهر ، أما ما تكنه الصدور فهو مما اختص الله تعالى به .

وفق أبو تمام في استحضار معنى الآية القرآنية الكريمة السابقة في مطلع المقطوعة السابقة ، فكان بمثابة البداية القوية التي مكنته من إصابة المعنى المراد وتأكيده .

وقوله :

رمى بكَ اللهُ بُرجيها فهدّمها ولو رمى بكَ غيرُ اللهِ لم يُصبِ [1]

استوحى أبو تمام معنى بيته السابق الذي مدح فيه المعتصم من قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنفال : ١٧) .

أرجع أبو تمام تحقيق ممدوحه النصر على أعدائه في موقعة عمورية إلى توفيق الله تعالى له ، فكان النصر على الأعداء ، بسبب إخلاصه في نصرة الدين ، فالله تعالى رمى به الأعداء ، فأصابهم في مقتل .

والملاحظ أنّ أبا تمام في بعض أبيات قصيدته التي أوردتُ منها البيت السابق عمل على الربط بين تحقيق النصر في الموقعة وصلاح الممدوح وتدينه ، فنجده يقدّمه في قصيدته بصورة المجاهد في سبيل الله تعالى [2] .

وكان حضور الآية الكريمة بمثابة الدليل على ما أراد أبو تمام أن يؤكده في قصيدته ، وهو صلاح ممدوحه وتقواه .

واستحضر أبو تمام في بيتين من الشعر قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ (الشرح : ٥ – ٦) .

البيت الأول قوله :

حتى انثنى العُسْرُ إلى يسره وانحَتَّ عن خديه ذاك العُبُوسُ [3]

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٤٢ . من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعب

(٢) ينظر على سبيل المثال : الأبيات (١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، وغيرها) .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٧٨ . من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء ، ويطلب منه فرساً ، ومطلعها :

جرَّت له أسماءُ حبلَ الشّموسُ والوصلُ والهجرُ نعيمٌ وبُوسُ

والآخر قوله :

وما من شدَّةٍ إلا سيأتي لها من بعدِ شِدَّتها رخاءُ [1]

استوحى أبو تمام البيتين السابقين من معنى الآيتين الكريمتين السابقتين استيحاءً على سبيل الاستدلال على المعنى المراد . ففي البيت الأول كان حضور الآيتين في سياق تجسيد صورة الممدوح الذي عاد إليه اليسر وفارقه العبوس بعد زوال همّه وحزنه على فراق حصانه .

وفي البيت الثاني أورد معنى الآيتين الكريمتين في سياق الاستدلال على المعنى المراد . إذ أراد أبو تمام أن يُعزي نفسه بعدما تعرض له بعض بني حُميد بإسماعه ما يكره بعد مقتل محمد بن حميد . فجاء بهذا البيت ضمن مقطوعة شعرية مكونة من تسعة أبيات.

ومن النماذج الأخرى التي أشار فيها أبو تمام إلى آيات من القرآن الكريم، قوله :

مستيقناً أن سوف يمحو قتلُه ما كان من سهوٍ ومن إغفالِ

مِثلُ الصلاةِ إذا أُقيمتْ أصلحتْ ما قبلها من سائر الأعمالِ [2]

عدّ أبو تمام في البيتين السابقين قتل المعتصمِ بابك من الأعمال الجليلة التي تحسب له . وشبّهه بالصلاة التي تكفر صغائر الذنوب [3] . مستدعياً قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (هود : ١١٤) .

استثمر أبو تمام الآية الكريمة السابقة في الاستدلال على فكرته . إذ جعل في قتل المعتصم عدوه (بابك) إكمالاً لما يقع لأعماله من سهو وإغفال . وفي ذلك دلالة واضحة على استيعابه المعاني القرآنية الكريمة . ومن ثم حضورها في شعره وامتزاجها به ؛ مما أكسب شعره مزيداً من القوة والجمال .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣١١ . من مقطوعة يُعرّض بها ببعض بني حُميد . ومطلعها :

إذا جاريت في خُلُقٍ دنيئاً فأنت ومن تجاريه سواءُ

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٦٣ . من قصيدة يمدح بها المعتصم . ومطلعها :

آلتْ أمورُ الشركِ شرَّ مآلِ وأقرَّ بعدَ تخمُّطٍ وصِيَالِ

(٣) ينظر : الكشاف : الزمخشري : ٢ / ٤١٨ – ٤١٩ .

وتفسير أبي السعود : (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: للإمام أبي السعود : ٢ / ٢٤٦ .

ومن نماذج ذلك – أيضاً – قوله :

لـك فـي رسـولِ اللهِ أعظـمُ أسـوةٍ وأجلُّـها فـي سـنة وكتـابِ

أعطـى المؤلفـةَ القُلُـوبِ رِضَـاهم كرمـاً، وردَّ أخاديـد الأحـزابِ [1]

في البيت الثاني دعا أبو تمام ممدوحه إلى التأسي بالرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أعطى المؤلفة قلوبهم من أشراف العرب من الصدقات ؛ استمالة لهم ليسلموا ، وأعطى (صلى الله عليه وسلم) – أيضاً – بعض حديثي العهد بالإسلام من الذين دخلوا الإسلام ؛ ليؤلف قلوبهم ، وهم الذي ذُكروا في آية الصدقة [2]. وتمثلت دعوته له في طلبه منه العفو عنهم ، تأسياً بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

استوحى أبو تمام بيته السابق من قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (التوبة : ٦٠) .

والملاحظ أن أبا تمام في البيتين السابقين استثمر القرآن الكريم ، ففي البيت الأول اقتبس ، وفي الثاني ألمح ؛ وذلك بهدف الاستدلال على فكرته ، وتحقيق مراده المتمثل في دفع الممدوح إلى العفو عن الذين أساءوا إليه ، فوجد في القرآن الكريم باباً واسعاً يمكن الولوج منه إلى تحقيق المراد.

وقوله :

لله درُّ بني عبد العزيز فكم أرْدُوا عزيز عِدىً في خدّه صَعَرُ! [3]

استدعى أبو تمام في بيته السابق قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (لقمان : ١٨) .

والآية الكريمة تدعو إلى التواضع والإقبال على الناس [4] ، وأبو تمام استثمر المعنى

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١/ ٥٥ . من قصيده يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أن دهراً ردَّ رَجْع جوابِ أو كفَّ من شأويه طُولُ عِتابِ

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٧٦ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣١ .من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز الطائي ، ومطلعها :

يا هذه أقصري ما هذه بشرُ ولا الخرائدُ من أترابها الأُخرُ

(٤) ينظر : الكشاف : ٣ / ٤٨٢ .

القرآني في الاستدلال على مراده ، إذ جعل ممدوحه وقومه من القوة بمكان ، فعدوهم الذي قتلوه متكبر عزيز في قومه ، وفي هذا مزيد من إسباغ صفات القوة على الممدوح وقومه .

وقوله :

أوما رأت بُرديَّ من نسْج الصِّبى ورأت خِضابَ الله ، وهو خضابي ؟ [1]

أخذ أبو تمام البيت السابق [2] من قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة : ١٣٨) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله تعالى يُطهّر النفوس بالإيمان من أوضار الكفر [3] ، فصبغة الله تعالى بمثابة الحلية التي تزيّن المؤمنين ، كما شأن الثوب الذي تزينه الصبغة [4] .

أما أبو تمام في بيته فاستدل بالمعنى القرآني على فكرته ، فهو في مقتبل العمر ، وشعره لم يخضبه ، فالسواد الذي فيه هو خضاب الله تعالى . ونجد التشابه بين الآية الكريمة وبيت أبي تمام ماثلاً في أن الصبغة في الآية الكريمة تعبر عن الإيمان الذي يكمل صاحبه ، أما الخضاب في بيت أبي تمام فيعبر عن اكتمال الشباب والقوة .

استثمر أبو تمام المعنى الذي اشتملت عليه الآية السابقة في تحقيق المعنى المراد ، وتوضيحه بصورة جلية ، فالخضاب في الآية الكريمة وفي بيت أبي تمام السابقة يعبر عن الكمال ، ومن هنا برزت موهبة أبي تمام الشعرية القادرة على استيعاب معاني القرآن الكريم المعجزة الفريدة ، ومزجها في شعره ، للاستدلال بها على فكرته .

وقوله :

شِعريَ ، أنّى هربْتَ في الطَّلَبِ ولو صَعِدْتَ السماءَ في سببِ [5]

يخاطب أبو تمام شعره في البيت السابق ، معاتبه على تأخر حضوره ، ومتوعداً

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٥١ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أنَّ دهراً ردَّ رجع جوابِ أو كفَّ من شأويه طُولُ عِتابِ

(٢) ينظر : شرح مشكلات ديوان أبي تمام : المرزوقي : ١٤٩ .

(٣) ينظر : الكشاف : ١ / ١٩٤ .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ١ / ١٦٨ .

(٥) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣١٥ .مطلع قصيدة يرد فيها على عتبة الذي كان قد هجا بني عبد الكريم من الطائيين .

خصمه بأنّ شعره سيطاله . وقد استحضر فيه قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحج : ١٥) .

تحدثت الآية الكريمة عن أنه " كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤون ما وعدهم الله ورسوله ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون ألا يثبت الأمر ، فنزلت . وقد فُسِّر النصر : بالرزق . وقيل : معناه إن الأرزاق بيد الله لا تُنال إلا بمشيئته ، ولا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظنَّ أن الله رازقه ، وليس به صبر واستسلام ، فليبلغ غاية الجزع ، وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً " [1] .

استدل أبو تمام بمعنى الآية الكريمة السابقة على تحقيق المعنى المراد وتقويته ، فالمهجو لن ينجو من شعره مهما تأخر الشعر في انقياده له .

وقوله :

يُرَى في كلِّ وادٍ أنت فيه بِلؤمكَ سائراً أبداً يَهِيمُ [2]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ (الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٦) .

تحدثت الآيات السابقة عن هيام بعض الشعراء في أودية القيل والقال ، وسلوكهم في شعاب الوهم والخيال ، ومسالك الغي والضلال .فهم " يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل ، بل يتحيرون في فيافي الغواية والسفاهة ، ويتيهون في تيه المجون والوقاحة ... " [3].

أما أبو تمام فاستحضر المعنى السابق واستثمره في تقبيح المهجو والتشنيع به ، فجعل شعره يتتبع لؤم المهجو الذي كان سبب إثارة القوافي لهجائه .

---

(١) الكشاف : ٣ / ١٤٤– ١٤٥ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٧٠ .من قصيدة يهجو بها أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود ، ومطلعها :

أتدري أيَّ بارقةٍ تشيمُ ومهلكةٍ إليها تستَنيمُ ؟

(٣) تفسير أبي السعود : ٦ / ٢٧٠ .

وقوله

إلاَّ تكن أرواحُها لكَ سُخّرت فالعزمُ طَوْعُ يديْكَ والإجذامُ [1]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾(الأنبياء:٨١) . والمعنى أنّ الله تعالى قد سخّر الريح لسليمان (عليه الصلاة والسلام) تنقاد لأمره انقياداً كلياً . فتأتمر بأمره وتنتهي بنهيه [2] .

ذهب أبو تمام إلى أن ممدوحه لم تُسَخّر له الرياح كما سخّرها الله تعالى لنبيه سليمان (عليه الصلاة والسلام) . لكنه يملك عزماً مكّنه من بلوغ غاياته بسرعة . قال شارح الديوان : " إنْ لم تكن كسليمان الذي سُخِّرت له الرياح ، فقد جُعل العزمُ والإسراع في السير مسخرين لك تبلغ بهما ما أردت ، والإجذام الإسراع في السير" [3].

استثمر أبو تمام المعنى القرآني الوارد في الآية السابقة في منح ممدوحه مزيداً من العزة والقوة ، من خلال استحضار الموقفين . فالريح سخرها الله تعالى لسليمان (عليه السلام) . أما أنت فهمتك دفعتك إلى تحقيق ما تصبو إليه .

وقوله :

حمتنا الطَّيْفَ من أم الوليد خُطُوبٌ شيَّبَتْ رأسَ الوليدِ [4]

استوحى أبو تمام بيته السابق من قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ (المزمل : ١٧) .

تحدثت الآية القرآنية الكريمة عن أهوال يوم القيامة الذي فيه تشيب نواصي الأطفال ، من شدة الأهوال [5] . أما أبو تمام فاستدعى معنى الآية واستثمره في سياق التهويل والتعظيم لمعنى مختلف . إذ جعل مرد امتناع طيف أم الوليد عن إتيانه في منامه إلى

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٧٤ . من قصيدة يمدح بها المأمون . ومطلعها :

دمنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حلَّ عقدةَ صبرهِ الإلمامُ ؟

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٦ / ٨٠ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٧٤.

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٥٠ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد . ومطلعها :

أظنَّ دموعها سننَ الفريد وهي سِلكاه من نحرٍ وجيدِ

(٥) ينظر : الكشاف : ٤ / ٦٢٨ .

الخطوب المدلهمة التي يتوقع أن يلقاه في الحرب .

استدل أبو تمام بالمعنى القرآني الكريم الذي جسّد أهوال يوم القيامة على صعوبة ما هم مقدمون عليه في لقاء عدوهم ، وشتان بين الأمرين .

ونجد أبا تمام يشير إلى بعض آيات القرآن الكريم في سياق إبراز بعض صفات ممدوحيه ، كقوله :

لـه خُلُـقٌ نهـى القـرآنُ عنـه ... وذاك عطـاؤه السَّرَفُ البِـدَارُ

ولـم يـكُ منـك إضـرارٌ ولكـن ... تمـادت فـي سـجيتها البحـارُ[1]

أراد أبو تمام بالخُلق المنهي عنه بالقرآن التبذير والإسراف ، قال المرزوقي (ت٤٢١هـ) : " يعني بالخلق المنهي عنه : إسرافه في العطايا وتجاوزه في بسط اليد كلَّ حدٍّ " [2] . فهو أراد أن يبالغ في منح ممدوحه صفة الكرم ، فعطاؤه " لا يشوبه مطْلٌ ، ولا يلحقه تسويف ، ولكن يبادر إلى فعله ، ويسارع في إنجازه وإمضائه " [3] .

وفي البيت الثاني احترس أبو تمام من أن يكون في عطائه إضرار ، فهو كالبحر الذي يوصف عطاؤه بأنه سجية فيه .

وقيل بأن أبا تمام أخذ معنى بيته من قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦ ﴾ (النساء : ٦) .

وقيل بل أخذه من قوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ ﴾ (الإسراء : ٢٦ – ٢٧) .

ويبدو لي أن أبا تمام أخذ المعنى من سورة الإسراء، لأن الآية الأولى الواردة في سورة النساء تحدثت عن أوصياء الأيتام ، بينما الآيتان الواردتان في سورة النساء فتحدثتا عن

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣١٢ .

(٢) شرح مشكلات ديوان أبي تمام : ١٠٣ .

(٣) شرح مشكلات ديوان أبي تمام : ١٠٤ .

التبذير بصورة عامة [1].

وفي موضع آخر يشير أبو تمام إلى صفات أمر القرآن الكريم بالالتزام بها، كقوله:

مَلِكٌ غدا جارَ الخلافة منكمُ والله قد أوْصى بحفظ الجارِ [2]

في البيت السابق ألمح أبو تمام إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (النساء: ٣٦).

والملك في بيت أبي تمام المعتصم، وقد وصفه أبو تمام بأنه جار للخلافة، وحفظ الجار / الخلافة مما أوصى به الله تعالى. وبهذا المعنى يكون أبو تمام قد استثمر المعنى القرآني استثماراً بديعاً وطريفاً، متجهاً في المعنى الذي قدّمه إلى منح ممدوحه بعداً دينياً، وهذا الأمر من الخصائص المعنوية لقصيدة المدح عنده.

ومن النماذج البديعة التي أشار فيها أبو تمام إلى آيات القرآن الكريم، قوله:

لا تنكروا ضربي له من دُونِهِ مثلاً شروداً في النَّدى والباسِ

فاللهُ قد ضرب الأقلَّ لنُوره مثلاً من المِشْكاةِ والنِّبراسِ [3]

يعدُّ البيتان السابقان من بديع شعر أبي تمام، وقد ارتجلهما تعليقاً على من أراد الطعن في شعره الذي مدح به أحمد بن المعتصم، وبخاصة بيته المشهور الذي قال فيه:

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنفَ في ذكاء إياسِ [4]

فقال له بعض حاسديه: إن الأمير فوق من وصفت، فأطرق أبو تمام قليلاً ثم زاد في القصيدة البيتين السابقين، فتعجب الحضور من سرعة فطنته [5].

---

(١) ينظر: شرح مشكلات ديوان أبي تمام: ١٠٣. وشرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣١٢.

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٣٥. من قصيدة يمدح بها المعتصم، ومطلعها:

الحق أبلج والسيوفُ عوارٍ فحذارِ من أسد العرينِ حذارِ

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٦٢. من قصيدة يمدح بها أحمد بن المعتصم، ومطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس نقْضي ذِمام الأربع الأدراسِ

(٤) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٦٢.

(٥) ينظر: أخبار أبي تمام: لأبي بكر بن يحيى الصولي: ٢٣١ – ٢٣٢.

في البيتين السابقين استدعى أبو تمام قوله تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (النور : ٣٥) .

تُبرز القصة السابقة مقدرة أبي تمام الشعرية وموهبته الفذة ، وفي الوقت ذاته تبين عمق تأثره بمعاني القرآن الكريم . فكان حضور معنى الآية القرآنية السابقة في ذهنه في ذلك الوقت الحرج سبباً في حسن تخلصه من المأزق الذي وضعه فيها بعض حسّاده ، فكان تمثله معنى الآية الكريمة مفحماً لهم ، ومخرجاً له من المأزق الذي وضعوه فيه .

وأبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) عدّ البيتين السابقين من الاقتباس، وذلك في قوله تعليقاً عليهما : " اقتبس الطائي الآية أحسن اقتباس ، وأوقعه موقعه " [١] .

ويلحظ أن الثعالبي يتوسع في مفهوم الاقتباس،فيدخل فيه ما ليسمنه،كالتلميح[٢].

– ثانياً – استدعاء قصص القرآن الكريم :

تعدُّ القصة القرآنية وسيلة من الوسائل المهمة التي اعتمدها القرآن الكريم في تحقيق غاياته العقدية والتربوية ، وهي تمثل ركيزة قوية من ركائز الدعوة إلى الإسلام ، والدعوة إلى التأمل والتبصر بما حلّ بالأمم السابقة .

والمتأمل في شعر أبي تمام سيلحظ تأثره بقصص القرآن الكريم ، وذلك من خلال استدعائه قصص الأنبياء (عليهم السلام) . وقصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم ، مما أسهم في منح شعره بعداً قصصياً . ويمكن إرجاع ذلك إلى ما تحويه تلك القصص من معانٍ جليلة . وعبر ظاهرة . فاستثمرها في التعبير عن الواقع المعاصر ، فكانت قصص القرآن الكريم بما تحويه من أخبار الأمم السابقة ، وما حلّ بها من هلاك – عاملاً معيناً على فهم الحياة الواقعية .

أ– استدعاء قصص الأنبياء :

نجد في شعر أبي تمام إشارات عدة إلى قصص الأنبياء (عليهم السلام) . فقد

---

(١) الاقتباس من القرآن : أبو منصور الثعالبي : ٢ / ١٥٤ .

(٢) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٣٤ .

تكررت في شعره الإشارة إلى مشاهد متعددة من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام). ومن ذلك قوله :

فكأنهم بالعِجْلِ ضَلُّوا حِقْبةً وكأنَّ مُوسى إذ أتاهم مُوسى [1]

في البيت السابق استحضر أبو تمام مشهداً من مشاهد قصة موسى (عليه الصلاة والسلام). واستثمر كونّ اسم ممدوحه هو اسم نبي الله موسى . قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (الأعراف : ١٤٨).

وموسى الأول هو الممدوح . أما الآخر فهو نبي الله (عليه الصلاة والسلام) . وقد شبه أبو تمام ضلال قوم الممدوح بضلال قوم موسى باتخاذهم العجل . فأنقذهم الممدوح مما هم فيه من ضلال . كما كان نبي الله موسى (عليه الصلاة السلام) سبباً في إنقاذ قومه من الضلال .

وفي موضع آخر استثمر أبو تمام – أيضاً –كون اسم ممدوحه موسى . فاستحضر مشهداً آخر من مشاهد قصة نبي الله موسى (عليه الصلاة والسلام). وذلك في قوله :

عُدنا بموسى من زمان أنشرتْ سطواتُه فرعونَ ذا الأوتاد [2]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع فرعون الذي لم يقوَ على مواجهة ما أحل به من مصائب .كان الغرق آخرها [3].

وأبو تمام في بيته السابق يشير إلى أنه " لجأ إلى ممدوحه هرباً من مصائب الدهر التي لم يقوَ عليها فرعون مصر " [4].

استثمر أبو تمام في النموذجين السابقين كون اسم ممدوحه هو اسم نبي الله موسى (عليه الصلاة والسلام) نفسه . فاستحضر مشهدين من مشاهد قصته ؛ لإسقاط

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٧٢ . من قصيدة يمدح بها موسى بن إبراهيم . ومطلعها :

أقشيبَ رَبْعِهمِ أراكَ دَريسا وقِرَى ضُيوفِكَ لوعةً ورَسِيسَا

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٩٧ . من قصيدة يمدح بها موسى بن إبراهيم . ومطلعها :

لَطَمَحتَ في الإبراقِ والإرعادِ وغدا عليَّ بسيلِ لومكَ عادِ

(٣) ينظر :سورة البقرة: آية ٥٠، و : سورة الأنفال : آية ٥٤ .وغيرهما من الآيات التي تحدثت عن مصير فرعون .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٩٧ .

الماضي على الحاضر المعاش ، وذلك من خلال تقديم دروس إلى العصاة والطغاة ، فعاقبتهم ستكون مثل عاقبة سابقيهم، ومن هنا كان حضور تلك القصص عاملاً مساعداً في تعميق الفكرة ، ومنحها بعداً دينياً .

وفي موضع آخر من ديوانه يستدعي أبو تمام مشهداً آخر من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) ، وذلك في قوله :

كأنـــني قـــد رأيـــتُ زُلفَـــتَه ... عنـــد إمـــامٍ بقربـــه أنِـــسِ
تُبْنـــى المـــعالي فـــي ظـــله ولـــه ... حظٌ من المُلْكِ غيرُ مُخْتَلسِ
فإنَّ موسى وصلى على روحه الرَّبُّ ... مـ صـــلاةً كثيـــرةَ القُـــدُسِ
صـــار نبيّـــاً وعـــُظْمُ بُغيَـــتِهِ ... فـي جـذوةٍ للـصلاة أو قـبسِ [1]

فممدوح أبي تمام في الأبيات السابقة كان يريد الوفادة لأمر هين، فتأول له أبو تمام بأن يُحظى بأكثر مما جاء من أجله ، فاستدعى أبو تمام قصة موسى(عليه الصلاة والسلام) الذي طلب جذوة من النار ، فأتاه الله تعالى النبوة [2] ، قال تعالى : ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾ (طه : ٩ – ١٣) .

كان موسى (عليه الصلاة والسلام) في تلك الليلة يأمل الحصول على جذوة من النار ، أو يجد من يهديه إلى الطريق ، لكنه ظفر ،في تلك الليلة ، بالرسالة ، إذا ناداه الله تعالى ، وأخبره بأنه اصطفاه بالرسالة [3].

وفي موضع آخر يشير أبو تمام إلى مشهد آخر من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) ، تمثل في قوله :

لو لم يَكِد للسامريّ قبيلُهُ ... ما خار عجلهم بغير خُوارِ [4]

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٥٧ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق، ويطلب فرساً ، ومطلعها :

قالتْ وعِيٌّ النساء كالخرسِ ... وقد يصبن الفصوص في الخُلسِ

(٢) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٥٧ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٣ / ٥١ – ٥٢ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ . من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَوارِ ... فَحَذارِ من أسد العرين حذارِ

في البيت السابق استحضر أبو تمام مشهداً آخر من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام)، يتمثل في قيام السامري باتخاذ عجل من ذهب في أثناء غياب موسى (عليه الصلاة والسلام) . قال تعالى:﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (الأعراف : ١٤٨) .

وجاء استحضار أبي تمام ذلك المشهد من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) في سياق تحريض المعتصم على قتل من بقي من أعدائه بعد أن قتل رئيسهم الأفشين ؛ لأنهم هم الذين أعانوه على فعله، وكذلك كان الأمر مع السامري، فلولا مساعدة قومه إياه لما تمكن من القيام بما قام به [1] .

وحضرت في شعر أبي تمام قصص أخرى لأنبياء الله تعالى (عليهم السلام)، منها الإشارة إلى قصة يوسف (عليه الصلاة والسلام)، وذلك في قوله :

هنَّ عوادي يُوسُفٍ وصَواحِبُهْ فعزماً فقِدْماً أدْرَكَ السُّؤْلَ طالِبُهْ [2]

في البيت السابق يحث أبو تمام ممدوحه على المضي على ما عزم عليه، ويطالبه بترك الاستماع إلى رأي النساء، فأبو تمام في بيته " ينسبهنّ إلى ضعف الرأي وقلة العقل، وأنهن لا يصلحن لقبول المشورة منهن، فقال : هُنَّ اللواتي أردن صرف يُوسُف النبي (عليه السلام) عن طريق الرشاد، وصواحبه بما كان منهن، فلا تلتفت إليهن ولا تُعوِّل في الأخذ والترك عليهن وعلى رأيهن، واعزم على السير عزماً، فقديما أدرك طالب الثأر وتره، أي سافر فإن وتْرك عند الأيام، وثأرك لديها ستُدركُه، ويجوز أن يُضرب بهذا مثل، والمعنى قديما من طلب شيئاً ناله " [3] .

اتخذ أبو تمام من قصة نبي الله يوسف (عليه الصلاة والسلام) درساً في الحث على البعد عن الاستماع إلى نصائح النساء، والمضي قدماً في الأمور ؛ فهنّ اللواتي كدن ليوسف (عليه الصلاة والسلام)؛ لذا فإنه حث ممدوحه على الإقدام على ما عزم عليه.

وأبو تمام شاعر يبحث عن المعاني الجديدة، فيعصر ذهنه، ويكد خاطره، ويحفر في

---

(١) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ١١٩ . مطلع قصيدة يمدح بها أبا العباس عبد الله بن طاهر .

(٣) شرح مشكلات ديوان أبي تمام : ٢٠٢ .

الصخر ، ليظفر بمعنى غير مسبوق ، وهو شاعر يجمع بين الفن والصنعة ، وقد علق أحد النقاد على كثافة المعاني في البيت السابق قائلاً : " كأني بالشاعر يحمل المعنى ، ويحمل معه شيئاً من مشقة المعاناة ، فكان فكره متبرمٌ به كتبرم الحامل أثناء مخاضها ، فإذا أودع معانيه المتزاحمة في بيت شعره ، فكأنما حطّ عن كاهله عناء ما كان يحمله . وقد تشعر بكثافة المعاني في البيت الواحد، وازدحام شطريه بها عندما تحاول أن تفسر هذا البيت أو تشرحه ، فتجدك مضطراً إلى شرح البيت الواحد بعدة أسطر " [1] .

ب – استدعاء قصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم :

حضرت بعض قصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم في شعر أبي تمام ، وتمثل ذلك في استدعائه بعضها ، مسقطاً إياها على الواقع المعاصر ، داعياً إلى الاعتبار والعظة بمصير تلك الأمم . ومن نماذج ذلك قوله :

وما تبرح الأيام تحذِفُ مدّتي ... بعدِّ حسابٍ لا كعدِّ حسابيا

لتمحوَ آثاري وتُخْلِقَ جِدتي ... وتخلي من ربعي بكرهٍ مكانيا

كما فَعَلتْ قبلي بِطَسْمٍ وجُرْهُمٍ ... وآلِ ثمودٍ بعدَ عادِ بن عاديا [2]

استدعى أبو تمام في بيته الأخير مصير بعض الأمم السابقة ، فما حلّ بها من فناء واندثار سيحل به. والقصيدة كاملة جاءت في الزهد . وعبّرت أجمل تعبير عن نظرة إيمانية صادقة سيطرت على مشاعره في تلك المرحلة .

وفي الأبيات التي تلت الأبيات السابقة استدعى أبو تمام– أيضاً – قصصًا أخرى لأمم سابقة جاء ذكرها في القرآن الكريم ، حيث قال :

كما أسكنتُ ساماً وحاماً ويافثاً ... ونوحاً ومن أضحى بمكةَ ثاويا [3]

أسهم حضور قصص ما حلّ بالأمم السابقة في القصيدة – في منحها بعداً إيمانياً ، إذ نقل الشاعر القارئ إلى تلك الأجواء المفعمة بالعبرة والعظة ، ودعاه إلى مراجعة النفس ومحاسبتها .

وكقوله :

---

(١) الفن والصنعة في مذهب أبي تمام : ١٧٩ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٦٣ . من قصيدة في الزهد ، ومطلعها :

ألم يأنِ تركي لا عليَّ ولا ليا ... وعزمي على ما فيه إصلاحُ حاليا؟

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٦٣ .

كأنهم معاشرٌ أهلكوا مِنْ بقايا قومِ عادٍ أو ثمودِ [1]

تحدث أبو تمام في بيته السابق عن المصير الذي آل إليه خصوم ممدوحه ، مشبهاً مآلهم بمآل قوم عاد وثمود . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ (الحاقة : ٤ – ٨) .

استدعى أبو تمام في بيته السابق قصة قوم عاد وثمود الواردتين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة [2]، وفي ذلك تعظيم لقوة ممدوحه الذي ألحق الهزيمة النكراء بخصومه .

وكقوله :

وثمودُ لو لم يُدْهِنُوا في ربِّهم لم تدْمَ ناقَتُه بسيفِ قُدَارِ [3]

استدعى أبو تمام مشهداً من قصة قوم ثمود تمثل في عقرهم الناقة . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥ ﴾ (الشمس ١٠– ١٥) .

استدل أبو تمام في بيته السابق بقصة قوم ثمود، فمن قتل الناقة ما كان ليفعل فعلته لولا أنه وجد مساندة من قومه ، كذلك الأفشين الذي لم يكن ليفعل ما فعله لو لم يسانده قومه ، فعندما وجد أبو تمام أن المعتصم قد توقف عن قتل القوم ، حرضه على قتلهم ، مستدلاً بقصة قتل الناقة ، فالقاتل لم يكن ليفعل لو لم يجد العون ، فجاء استدعاء تلك القصة في سياق التحريض على قتل الخصوم .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٥٣ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي ، ومطلعها :

أظنُ دموعها سنن الفريد وهي سلكاه من نحرٍ وجيدِ

(٢) ينظر : التوبة : ٧٠ ، وإبراهيم : ٩ ، والحج : ٤٢ ، والعنكبوت : ٣٨ ، والنجم : ٥١ ، وغيرها من المواضع .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ . من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ فحذارِ من أسد العرين حذارِ

وكقوله :

نظرتُ في السيّر الأُولى خلتُ فإذا أيامُـهُ أكلـتْ باكـورة الأمـم

أفنى جَدِيساً وطَسْماً كلَّها وسطا بأنجم الدَّهْرِ من عادٍ ومن إرمِ [1]

استحضر أبو تمام في البيتين السابقين قصص الأمم السابقة ، للعظة والاعتبار من المصير الذي آلوا إليه، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ ۝ ﴾ (الفجر : ٦ – ٨) .

يشير أبو تمام إلى أنه نظر في أخبار الأمم السابقة فوجد أنّ أيام البغي والظلم قد أهلكتهم وافنتهم ، فينبغي أن يأخذ الناس العظة والعبرة من ذلك المصير .

في استدعاء أبي تمام بعض قصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم دعوة إلى الاعتبار والاتعاظ بما حلّ بهم ، والزهد بما في هذه الحياة ، فما حدث لتلك الأمم يمكن أن يتكرر. وحضور هذه القصص أضفى على شعر أبي تمام أجواء إيمانية تعبر عن نزعة دينية متأصلة في تجربته الشعرية .

والملاحظ على أسلوب أبي تمام في استدعاء تلك القصص اكتفاؤه باللمحة العابرة الخاطفة الموحية التي تُذكِّر المتلقي بمصائر تلك الأمم ،وتدعوه إلى الاعتبار والعظة بما حلّ بها . ومن جانب آخر أحدث حضور تلك القصص في شعره تعانقاً وامتزاجاً مع القرآن الكريم – أسهم في منح شعره مزيداً من الجاذبية والإثارة والتوهج ، مشكلاً إضافة فنية وموضوعية عليه .

لقد وجد أبو تمام في موضوعات تلك القصص معانٍ جليلة استثمرها في التعبير عن رؤاه ، وإصابة المعنى المراد ، فعن طريقها أكد أفكارها ، فجاءت تلك القصص بمثابة الأدلة على ما يقدمه في شعره . وفي الوقت ذاته عبرت عن ثقافة دينية عميقة ، أكسبت تجربته الشعرية قوة وجمالاً ، وعملت على تحريك فكر القارئ ووجدانه ، من خلال ولوجه إلى تلك الأجواء الدينية المؤثرة .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٩٤ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

سلِمْ على الربع من سلمى بذي سَلَمِ عليه وسمٌ من الأيام والقدمِ

– ثالثاً : استدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم :

استدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم تعدّ صورة من صور تأثر الشعراء التي نطالعها في الشعر العربي عبر عصوره المتلاحقة [1] .

وفي شعر أبي تمام – أيضاً – نجد هذه الظاهرة ، إذ تنوعت صور حضور تلك الشخصيات في شعره ، فتطالعنا شخصيات جاء ذكرها في القرآن الكريم ، كالأنبياء (عليهم السلام) والصالحين والمنبوذين .

لقد استحضر أبو تمام في شعره بعض تلك الشخصيات ، مستثمراً تجاربها الغنية والمواقف التي مرت بها في إغناء تجربته الشعرية ، فكان ذلك الاستدعاء بمثابة التجربة الحية النابضة بالصدق والواقعية ، مما أسهم في منح شعره بُعداً دينياً ، نقل القارئ معه إلى تلك العوالم المشبعة بالعبرة والعظة . ومن جانب آخر كان تعبيراً صادقاً عن تأثر أبي تمام بالقرآن الكريم .

وكانت شخصيات الأنبياء (عليهم السلام) الأكثر حضوراً في شعره ؛ ولا غرو في ذلك ، فالأنبياء (عليهم السلام) هم أفضل مخلوقات الله تعالى ، وتجاربهم الأكثر عمقاً، وحضورهم – بطبيعة الحال – سيكون تأثيره أقوى من الشخصيات الأخرى ، فهم القدوة والمثال ، وهم صفوة خلق الله تعالى ؛ لذا نجدهم الأكثر حضوراً في شعره .

والملاحظ أن أبا تمام اعتمد في استدعائه بعض الأنبياء (عليهم السلام) الاقتصار على استدعاء صفة من صفاتهم التي عرفوا بها واشتهروا بها ، ومن ذلك اقتران الشكر بشخصية نوح (عليه الصلاة والسلام) ، قال أبو تمام :

لم يُلْبِسِ اللهُ نوحاً فضْلَ نِعْمَتِه إلا لما بَثَّهُ مِنْ شكره نوحُ [2]

استدعى أبو تمام صفة ارتبطت بنبي الله نوح (عليه الصلاة والسلام) ، وهي الشكر، قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (الإسراء : ٣) .

---

(١) ينظر على سبيل المثال :

– استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر : د . علي عشري زايد .

– استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث : د . محمد منور .

– استيحاء التراث في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين ٤٠٠ – ٥٣٩ هـ) : د . إبراهيم الياسين .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ١٨٣ .من قصيدة يمدح بها أبا سعيد . وقيل نوح بن عمرو . ومطلعها :

قلْ للأمير لقد قلَّدتني نِعَماً فُتَّ الثناء بها ما هبّتِ الريحُ

قيل عن نوح (عليه الصلاة والسلام) : إنه " كان إذا أكل قال الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني . وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني . ولو شاء أظمأني . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني . ولو شاء أعراني ..." [1] .

كان نوح (عليه الصلاة والسلام) عبداً شكوراً في جميع أموره . ودعا الله تعالى عباده – الذين هم من ذرية نوح – إلى أن يتخذوه قدوة لهم وأسوة في شكر الله في جميع الأحوال .

تمثل استدعاء أبي تمام شخصية نبي الله تعالى نوح (عليه الصلاة والسلام) في استدعاء صفة الشكر التي اتسم بها ؛ مستدلاً بها على أهمية شكر الله تعالى على نعمه التي لا تحصى . فبالشكر تدوم النعم .

وفي موضع آخر استدعى شخصية أبي الأنبياء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من خلال صفة الكرم التي اشتهر بها ،فهو " أول من أضاف الضيف " [2] ،وذلك في قوله :

وبيانُ ذلكَ أنَّ أولَ مَنْ حبا وَقَرَى خليلُ اللهِ إبراهيمُ [3]

في البيت السابق استدعى أبو تمام شخصية نبي الله تعالى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)

لقد كان ممدوح أبي تمام كريماً جواداً . ولم يكتف أبو تمام بمدحه بالكرم . بل ربط بين هذه الصفة وأبي الأنبياء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) .

يلحظ أن أبا تمام في النموذجين السابقين عمل على الربط بين اتسام ممدوحيه بصفتي الشكر والجود والتدين . من خلال الربط بين الصفتين ورسولين من أولى العزم من الرسل (عليهم الصلاة والسلام) . وهذا الملمح أجده ظاهرة في شعر أبي تمام تستحق الدراسة . فالمعاني الدينية حاضرة بقوة في شعره، وبخاصة في المدح، إذ كان حريصاً على جعل ممدوحيه يتمثلون قيم الإسلام ومعانيه، وذلك من خلال التقاطه بعض صفات أنبياء الله تعالى (عليهم السلام)، ومنحها ممدوحيه؛ لتأكيد تدينهم .

---

(١) الكشاف :٢ / ٦٢٣ .

(٢) قصص الأنبياء : ابن كثير : ١٩٧ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٤٧ . من قصيدة يمدح بها محمد بن الهيثم . ومطلعها :

أسقى طُلُولَهُم أجَشُّ هَزِيمُ وغدتْ عليهم نضرةٌ ونعيمُ

وفي مواضع عدة استحضر أبو تمام شخصية نبي الله يوسف (عليه الصلاة والسلام) متكئاً على صفة الحسن التي اتصف بها، فقد أُعطي شطر الحسن ، وكان في غاية الحسن البشري [1] . ومن ذلك قوله:

فأغضبتُه أن قلتُ له يا أحسنَ الورى وكاد بأن يُفضي إلى الشتم واللعن

إذا غاظَ وصفُ الناس بالحُسنِ أهلَه فَلمْ لمْ يُخَرِّقْ ثوبَه يوسفُ الحُسْنِ ؟ [2]

وذكْر يوسف (عليه الصلاة والسلام) في البيتين السابقين جاء في سياق استحضار صفة الحسن التي اتصف بها، وكان أبو تمام قد وصف امرأة بالحسن ، فغضبت ، فاستدل بحسن نبي الله تعالى يوسف (عليه الصلاة والسلام)، فالحسن صفة لا تغضب صاحبها . والاستدلال هنا غير مقبول؛ لأن وصف أبي تمام امرأة بالحسن في مقطوعته جاء في غير موضعه، لذا لم تقبله تلك المرأة .

وقوله :

ما استُجمِعَتْ فِرَقُ الحُسْنِ التي افترقتْ عن يوسف الحُسْنِ حتى استجمعتْ فيه [3]

وقوله :

قرينُ الصِّبا في وجنَتَيْهِ ملاحةٌ ذَكَرْتُ بها أيامَ يوسفَ في الحُسنِ [4]

في الأبيات الثلاثة السابقة استدعى أبو تمام نبي الله تعالى يوسف (عليه الصلاة والسلام)، من خلال صفة الحسن التي اشتهر بها . فجعل من يتغزل به شبيهاً بيوسف في الحسن والجمال. وفي الأبيات السابقة – أيضاً – نجد أن كلمة الحسن اقترنت بيوسف (عليه الصلاة والسلام)، وأشير هنا إلى أنَّ أبا تمام كثيراً ما كان يعمد إلى تكرار المعاني في شعره، فهو عندما يمسك بتلابيب المعنى، يكرره في سياقات عديدة متشابهة، وهذا التكرار أعدّه مأخذاً عليه .

وفي موضع آخر يستدعي شخصية رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) من

---

(١) ينظر : قصص الأنبياء : ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٠٠ . من مقطوعة غزلية ، ومطلعها :

ومحتكمٍ في الخَمصِ طوراً وفي البُدن فقد دقَّ عن حِقْفٍ وقد جلَّ عن غصْنِ

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٠٦ . من مقطوعة غزلية ، ومطلعها :

نشرتُ فيك رسيساً كنتُ أطويه وأظهرتُ لوعتي ما كنتُ أخفيه

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٢٩ . من قصيدة يصف فيها مجلس للحسن بن وهب ، ومطلعها :

أفيكم فتى حيٌّ فيخبرَني عني بما شربتْ مشروبةُ الراح من ذهني

خلال وصفه بأنه عبد الله، قال أبو تمام :

يا سميَّ النبي في سورة الجنِّ ويا ثاني العزيز بمصرِ [1]

أبو تمام يعني عبد الله الكاتب، " ويعني بقوله (يا سمي النبي في سورة الجن)، قوله تعالى ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ [2]. وعبد الله في هذا الموضع وصف وليس باسم علم ..." [3] . والمراد الرسول محمد (صلى الله وعليه وسلم) ، فالمراد هنا صفة الرسول (عبد الله) ، وليس اسمه . أما ثاني العزيز – كما ذهب شارح الديوان – فهو عبد الله بن أبي سرح الذي ولي مصر بعد عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) [4] .

وأرى أنّ أبا تمام لم يوفق في هذا البيت ؛ لأن فيه تكلفاً ظاهراً ، فالذي لا يعرف اسم الممدوح لا يصل إلى المراد، وفي الشطر الثاني – أيضاً – تكلف ظاهر، فهو سمي للوالي الثاني الذي ولي مصر بعد عمرو بن العاص (رضي الله عنه) ، بينما الأقرب أن يكون المراد بثاني العزيز يوسف (عليه الصلاة والسلام) .

وفي نماذج أخرى استدعى أبو تمام أكثر من نبي في الوقت ذاته، وبخاصة محمد ويوسف (عليهما الصلاة والسلام)، كقوله في مطلع مقطوعة شعرية مكونة من أربعة أبيات :

يا سميَّ الذي تبهَّلَ يدعو ربه مُخْلصاً له في " قل أوحي "

وشبيه الذي استقلتْ به العي رُ عن الجُبِّ خاضعاً كالطَّليح [5]

ففي البيت الأول يشير إلى أن اسم ممدوحه هو اسم الرسول محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾ (الجن : ١) .

وفي البيت الثاني استدعى شخصية يوسف (عليه الصلاة والسلام) من خلال صفة الحسن التي اشتهر بها، ويشير إلى أن ممدوحه شبيه بنبي الله يوسف (عليه الصلاة والسلام) .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٦٧ . مطلع مقطوعة مكونة من أربعة أبيات يمدح بها عبد الله الكاتب .

(٢) سورة الجن : من الآية ١٩، وتمامها (... كادوا يكونون عليه لبداً) .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٦٧ .

(٤) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٦٧ .

(٥) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٥٩ .

وتكرر ذلك الأمر، حيث قال:

يوسفياً محمدياً حفياً بذليل الثّرى رؤوفاً رحيماً [1]

استدعى أبو تمام شخصيتي: يوسف ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) مشبهاً ممدوحه بهما، وبخاصة في صفة الرحمة والرأفة.

في النماذج السابقة تمثل استدعاء أنبياء الله تعالى من خلال استدعاء صفة من الصفات التي اشتهروا بها، فجاء الاستدعاء جزئياً مقتصراً على صفة من صفاتهم (عليهم السلام)، ولم يكن له أثر فني مهم في بناء القصيدة.

ونطالع في شعر أبي تمام استدعاء للملائكة، كقوله:

وكلُّ حسنٍ فَمِنْ عينَيْكَ أوّلُه مُذ خطَّ هارُوتُ في عينيك عَسْكَرَهُ [2]

في البيت السابق استدعى أبو تمام شخصية (هاروت) وهو أحد الملكين اللذين جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (البقرة: ١٠٢).

وهاروت وماروت ملكان أنزل الله تعالى عليهما "علْم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به، ولكن ليتوقاه، ولئلا يغترّ به، كان مؤمناً..." [3].

وجاء استدعاء أبي تمام هاروت من خلال العلم الذي اشتهر به وهو السحر، للمبالغة في وصف جمال من يحب، فبداية الحسن من عيونه التي خطها عسكر هاروت.

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١١١. من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف، ومطلعها:

إن عهداً لو تعلمان ذميماً أن تناما عن ليلتي أو تُنيما

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٢٧٠. من مقطوعة من أربعة أبيات يتغزل بها، ومطلعها:

قد صنّف الحسنُ في خديكَ جوهره وفيه قد خلّف التفاحُ أحمرهُ

(٣) الكشاف: ١ / ١٧٢.

وفي شعر أبي تمام استدعاء لشخصيات الصالحين الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، كالعبد الصالح (الخضر)، ولقمان الحكيم، وملكة سبأ (بلقيس) .

ومن ذلك استدعاؤه شخصية العبد الصالح الذي أشارت بعض كتب التفسير إلى أنه الخضر [1]، وذلك في قوله :

يا خضرُ قد كُنتَ ذا استتارٍ في الحب حتى هتكت ستري [2]

استدعى أبو تمام شخصية الخضر من خلال صفة من الصفات التي اشتهر بها، وهي : الغموض والاستتار . فالقصة القرآنية لم تذكر من أين جاء ؟ وإلى أين ذهب ، بعد انقضاء رحلته مع موسى (عليه الصلاة والسلام) ؟ وهذا هو منهج القصة القرآنية ، إذ تكتفي بذكر الأحداث والأوصاف والمعلومات المهمة في تحقيق أغراضها الدينية والدنيوية، أما التفصيلات غير المهمة فلا تقف عندها، وهذا يتفق مع طبيعتها وغاياتها .

أما لقمان الحكيم فجاء استدعاؤه في مواضع عدة من ديوان أبي تمام، من خلال صفة الحكمة التي اتسم بها، ومن ذلك قوله :

لقمانُ صمتاً وحِكْمَةً فإذا قال لقَطْنَا المَرجانَ من خُطَبِهْ [3]

شبه أبو تمام ممدوحه بلقمان الحكيم . ووجه الشبه بينهما صفة الحكمة التي وصفه القرآن الكريم بها، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (لقمان : ١٢) .

جعل أبو تمام ممدوحه حكيما في صمته، أما حينما يتحدث فكلامه يشبه المرجان. وهكذا نجد أبا تمام يتكئ على الشخصية المستدعاة في التعبير عن رؤاه وإصابة المعنى المراد، فاقتنص صفة الحكمة من شخصية لقمان الحكيم، ومنحها ممدوحه، وقد تكرر ذلك في شعره ، كقوله :

فإن شهد المقامةَ يوم فصلٍ رأيتَ نظير لقمان الحكيم [4]

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢ / ٧٠٣ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام :٢ / ٢٦٨ . من مقطوعة شعرية غزلية مكونة من خمسة أبيات .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ١٤٩ . من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك . ومطلعها :

إنّ بكاءً في الدار مِنْ أرَبِهْ فشايعا مُغرماً على طربهْ

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٧٩ . من قصيدة يمدح بها بني عبد الكريم الطائيين . ومطلعها :

أرامةَ كنتِ مألفَ كل ريمِ لو استمتعتِ بالأنسِ القديمِ

في البيت السابق – أيضاً – استحضر أبو تمام شخصية لقمان الحكيم من خلال صفة الحكمة، إذ جعل من ممدوحه نظيراً للقمان في الحكمة.

وفي موضع آخر استدعى أبو تمام شخصية لقمان الحكيم للتأكيد أن الحرب قائمة لا محالة، فهي واقع لا يمكن رده، حتى إن لقمان الحكيم لو حضر ذلك الموقف، فلن يجد بداً من التخلي عن حكمته، وخوض غمار المعركة، وذلك في قوله:

في ساعة لو أن لقماناً بها ... وهو الحكيم لصار غيرَ حكيمِ [1]

يرى أبو تمام أن الحكمة تغيب في بعض المواقف، وذلك عندما تطل الحرب برأسها، فتحتاج من صاحب الحرب أن يتهور ويقدم وينسى العواقب.

واستدعى أبو تمام أيضاً شخصية ملكة سبأ، وذلك في قوله:

لولا حَدَائتُها وأني لا أرى ... عرْشاً لها لظننتُها بلْقيسا [2]

استحضر أبو تمام شخصية ملكة سبأ، مانحاً محبوبته صفاتها، فملكة سبأ جمعت محاسن شتى، منها: الحسن والملك والهيبة، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (النمل: ٢٣).

إن المرأة التي أشار إليها أبو تمام في بيته تشبه ملكة سبأ في كثير من الجوانب، وتختلف عنها في جانبين: الأول: أن ملكة سبأ متقادمة العهد، والآخر: أنها لا تملك عرشاً كملكة سبأ.

وأشير في هذا المقام إلى أن القرآن الكريم لم يذكر أن اسم ملكة سبأ بلقيس، لكن كتب التفسير صرّحت بذلك [3].

وفي مقابل شخصيات الأنبياء(عليهم السلام) والصالحين نجد أبا تمام يستدعي في شعره بعض شخصيات المنبوذين الواردة في القرآن الكريم،كفرعون وهامان وقارون[4].

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١٣٥. من قصيدة يمدح بها إسحاق بن إبراهيم. ومطلعها:

يا ربعُ لو ربعُوا على ابن هُمُومِ ... مُستسْلِمٍ لجوى الفِراقِ سقيمِ

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٦٩. من قصيدة يمدح بها أبا المُغيث موسى بن إبراهيم. ومطلعها:

أقشيبَ ربعهِمِ أراكَ دريسا ... وقِرى ضُيوفِكَ لوعةً ورسيسا

(٣) ينظر: الكشاف: ٣ / ٣٤٩.

(٤) فرعون نموذج للحاكم المتسلط، وهامان نموذج للوزير المفسد المعين على الشر، وقارون نموذج لمن آتاه الله تعالى المال فجحد فضله. ينظر: خصائص القصة الإسلامية: د. مأمون فريز جرار: ٧٧. و: نظرات في أحسن القصص: د. محمد السيد الوكيل: ٢ / ١٢٧.

ففي بيت واحد جمع بينهم، وذلك في قوله:

هيهات لم يعلمْ بأنكَ لو ثوى بالصين لم تَبْعُد عليكِ الصينُ

ما نال ما قد نال فرعونُ ولا هامانُ في الدنيا ولا قارونُ [1]

تحدث أبو تمام في بيته عن بابك الذي نال في حياته أكثر مما ناله فرعون وهامان وقارون، لكن الأفشين تمكن منه وقضى عليه، وعاقبته كانت كسابقيه من الطغاة.

والشخصيات الثلاث من الطغاة الذين يضرب بهم المثل في كثرة المال والتجبر، وقد جمعهم أبو تمام في بيت واحد، فالمهجو فاق في الغنى والملك كل أولئك الطغاة، لكن عاقبته كانت وخيمة، إذ تمكن الأفشين من القضاء عليه.

ومهارة أبي تمام برزت في الجمع بين الطغاة الثلاثة في بيت واحد، وفي شخص واحد، فشكل حضورهم مجتمعين تكثيفاً في المعنى، وتعميقاً للفكرة المقدمة.

وقوله:

أنت الذي يملك أضعاف ما حواه قارون من البُغضِ [2]

استدعى أبو تمام شخصية قارون الذي اشتهر بكثرة المال، ووظفها في الهجاء، فجعل المهجو يملك أضعاف ما كان يملكه قارون من البغض.

ومن الشخصيات المنبوذة التي استدعاها أبو تمام في شعره شخصية إبليس، وقد استدعاه في قوله:

لو أن أسباب العفاف بلا تقىً نفعت لقد نفعتْ إذاً إبليسا [3]

في البيت يدعو أبو تمام إلى الجمع بين العفاف والتقى والندى، فإبليس " كان يتعبد مع الملائكة إلا أنه لم يتقِ، فصارت عاقبة أمره إلى ما كان، (وأسباب العفاف) هو الكف عن أكل الحرام وأخذ أموال الناس وغيرهما مما لا يتعاطاه، وهي حاصلة فيه، غير أنه لم يكن معها التقوى ولا الندى فلم ينتفع بها، فكذلك عفتك التي لزمتك إذا لم يكن معها

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١٦٣. من قصيدة يمدح بها الأفشين، ومطلعها:

بذَّ الجِلادُ البَذَّ فهو دفينُ ما إنْ به إلا الوحوشَ قطينُ

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٣٤٨. من مقطوعة شعرية في هجاء ابن الأعمش، ومطلعها:

والله يا ابن الأعمش المبتلى ----------

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٧٣. من قصيدة يمدح بها أبا المغيث موسى بن إبراهيم، ومطلعها:

أقشيبَ ربعهم أراك دريسا وقِرى ضُيوفِكَ لوعةً ورسيسا

تقى ولا ندى لم ينتفع بها المرء "[1].

جاء استدعاء إبليس من خلال افتقاده صفة التقوى، أما ما يتصف به إبليس من كفه عن أكل الحرام وأخذ أموال الناس،فحاصل دون فضل منه. استثمر أبو تمام هذا المعنى في الدعوة إلى الجمع بين التقوى والعفاف . وهو معنى طريف من المعاني الكثيرة التي نطالعها في شعر أبي تمام .

مما سبق يتضح تنوع صور التلميح في شعر أبي تمام ، وأبرزها : الإشارة إلى بعض آيات القرآن الكريم ، واستدعاء بعض قصص القرآن الكريم والشخصيات الواردة فيه، وبذلك كان للقرآن الكريم أثره الواضح في تشكيل عالمه الشعري ؛ مما أكسب شعره مزيداً من القوة والجمال ، ومنحه جاذبية وجلالاً وهيبة ، وكان بحق معبراً عن الحياة في ذلك العصر : مكاناً وزماناً .

لقد كان القرآن الكريم رافداً من أهم روافد أبي تمام الشعرية ، وقد استثمر براعة القرآن الكريم في التعبير عن المواقف المختلفة ، فجاء شعره ممتزجاً بذلك الأسلوب الفريد المعجز . وقد وصف أحد النقاد براعة أبي تمام في استثمار معاني القرآن الكريم بأنها تأتي : " على شكل تعبير عن مقتضى الحال ، منساقة انسياقاً طبيعياً ، متلاحمة مع السياق العام للنظم ، مستثمرة استثماراً فيه من الرشاقة والإبداع ما يتناسب وجلال القرآن "[2].

وإجمالاً يمكن القول : إنّ أبا تمام حافظ في كثير من النماذج التي ألمح فيها إلى القرآن الكريم على قداسته ومكانته الرفيعة ، لكن هناك نماذج قليلة أخفق فيها ، إذ أشار في بعض أبياته الشعرية إلى آيات قرآنية كريمة وقصصاً قرآنية وشخصيات في سياقات لا تتفق مع تلك القداسة ، منها قوله :

كوْنُكَ في صُلبِ أبينا آدمٍ أهْبَطَنا جمْعاً إلى الأرض ![3]

في البيت السابق استدعى أبو تمام قصة هبوط آدم (عليه السلام) إلى الأرض ، قال

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٧٣ .

(٢) الفن والصنعة في مذهب أبي تمام : ١٤٤ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام ٢ / ٣٤٨ .. من مقطوعة شعرية في هجاء ابن الأعمش ، ومطلعها :

والله يا ابن الأعمش المبتلى ----------

تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة : ٣٦) [1].

جعل أبو تمام في البيت السابق سبب هبوط آدم (عليه السلام) وذريته من السماء إلى الأرض كون المهجو من صلبه ومن سلالته . وفي هذا تجاوز غير مقبول لقضاء الله تعال وقدره.

وقوله :

فاجأتنا كَدْراءُ لم تُسْبَ من تس ... نيم جِرْيَالها ولا سلسبيلِ

...

وكأنّ الأنامل اعتصرتها ... بعد كدٍّ من ماء وجه البخيل

احتساباً بذلتها أمْ تَصدَّق ... ت بها رحمةً على ابن السبيل ؟![2]

أشار أبو تمام في البيت الأول إلى قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الإنسان : ١٨) . فالآية الكريمة تحدثت عن عين في الجنة شرابها لذيذ [3]. أما أبو تمام في بيته فتحدث عن خمر الدنيا ، وفضّلها على الشراب اللذيذ الذي تحدثت عنه الآية الكريمة، وفي هذا تجاوز غير مقبول .

المبحث الثاني : الاقتباس :

إذا كان التلميح يقوم بنقل مفردة أو عدة مفردات تشير إلى نص سابق أو قصة أو شخصية أو مثل أو موقفٍ ، أو يقوم المعنى اللاحق باستحضار معنى سابق ، فإن الاقتباس يقوم بنقل التراكيب دون تغيير أو مع تغيير يسير.

ويعدّ الاقتباس صورة من صور تأثر أبي تمام بالقرآن الكريم ، وفيه تحضر آية قرآنية أو جزء من آية قرآنية في شعره ، دون تحوير أو تغيير، أو مع تغيير طفيف . مع التأكيد أنه لا بد من مراعاة قدسية القرآن الكريم ومكانته .

ومصطلح الاقتباس يندرج في الدراسات النقدية الحديثة تحت مصطلح التناص ، بوصفه

---

(١) ينظر : البقرة : ٣٨ . و : الأعراف : ٢٤ . و: طه : ١٢٣.

(٢) شرح ديوان أبي تمام :٢ / ٤٠١ . من قصيدة يعاتب فيها أبا علي موسى القُمّي في نبيذٍ أهداه إليه . ومطلعها :

قد عرفنا دلائل المنع أو ما ... يشبه المنعَ باحتباسِ الرسولِ

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن الكريم : القرطبي : ١٩ / ١٤٢.

شكلاً من أشكال التداخل بين النصوص والتفاعل معها وامتصاصها واستلهامها واستدعائها . وصورة من صور تفاعل الأدباء مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بوصفهما المثال الأعلى والأنموذج الفريد للبلاغة [1] .

والاقتباس في اللغة بمعنى الأخذ والاستفادة . فالقبس هو الشعلة من النار ، واقتباسها الأخذ منها ، والقبس الجذوة ، ويقال قبست منه ناراً ، أي أعطاني منه قبساً ، واقتبست منه علماً – أيضاً – أي استفدته [2] .

أما الاقتباس في الاصطلاح فهو " أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث ، لا على أنه منه " [3] . أما إذا قال المتكلم في كلامه : قال الله تعالى أو قال الرسول ﷺ ونحوه فإنّ ذلك حينئذٍ لا يكون اقتباساً [4] . والاقتباس يكون في الشعر والنثر .

وأشار أحد الباحثين إلى أن واضع مصطلح الاقتباس فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، حيث قال : " الاقتباس عند البلاغيين أحد الفنون البديعية ، وأول من وضع هذا المصطلح فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) .وكان معروفاً قبل الرازي باسم التضمين " [5] . وقد عرّف الرازي الاقتباس بقوله : " هو أن تُدرج كلمة من القرآن ، أو آية منه ، في الكلام ؛ تزييناً لنظامه ، وتفخيماً لشأنه " [6] .

ومن خلال تتبعي للمصنفات البلاغية وجدت أن أبا منصور الثعالبي صنع مؤلفاً في الاقتباس سماه (الاقتباس من القرآن) ، قال في مقدمته : " هذا النبي ﷺ هو أفصح العرب لهجة ، وأعذبهم عذْبةً [7] . وأحسنهم إفصاحاً وبياناً ،وأرجحهم في الحكمة البالغة ميزاناً ، وقد اقتبس من معاني القرآن وألفاظه في الكثير من كلامه ، والجم من مقاله ، وكذلك السلف الأفضل من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم أجمعين) ، ومن بعدهم

---

(١) ينظر : التناص في شعر الرواد : : د . أحمد ناهم : ١٠٤ .
و استيحاء التراث في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين : ٤٠٠ – ٥٣٩هـ) : ١٩ .
(٢) ينظر : لسان العرب : مادة (قبس) .
(٣) التلخيص : ٤٢٢ .
(٤) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : الإمام جلال الدين السيوطي : ١/ ٣١١ .
(٥) الاقتباس (أنواعه وأحكامه : دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث) : د . عبد المحسن العسكر : ١٣ .
(٦) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٨٨ .
(٧) العذبة : طرف اللسان الدقيق . ينظر : لسان العرب : مادة (عذب) .

إلى يومنا من كل طبقة ، فما أكثر ماعوّلوا على الاقتباس من القرآن فرصّعوا كلامهم ترصيعاً، وتعاطوا فنونه جميعاً "[1].

والثعالبي في كتابه لم يعرّف الاقتباس تعريفاً صريحاً ، لكن من خلال تتبع كلامه والشواهد التي ساقها يتضح أنه يتوسع في مفهومه ، فيدخل فنوناً أخرى كالتلميح، فالاقتباس عنده يتسع ليشمل أخذ الألفاظ والمعاني ، ومن ذلك عدّه من الاقتباس قول أبي تمام :

أشْكُرُ نُعمى مِنْكَ مشكورةً وكافرُ النَّعْماءِ كالكافر[2]

أشار الثعالبي إلى أن أبا تمام اقتبس البيت السابق من قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل : ٤٠)[3].

وبالنظر إلى الآية الكريمة وبيت أبي تمام نجد أنه لم يقتبس الآية السابقة، بل أشار إليها، فهو من باب التلميح لا الاقتباس .

ومن ذلك – أيضاً – عدُّه من الاقتباس قول أبي تمام :

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومه لكن سيد قومه المُتغابي[4]

ذكر الثعالبي أنّ البيت السابق أخذه أبو تمام من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنعام : ٦٨)[5].

ومن خلال التأمل في الآية الكريمة وقول أبي تمام نجد أنه لا يوجد اقتباس ، حتى لو قلنا بأن هناك تلميحاً في البيت الشعري إلى الآية الكريمة لوجدنا اختلافاً كبيراً ظاهراً

---

(١) الاقتباس من القرآن : ١ / ٣٩.

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣١٥ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد ، ومطلعها :

قل للأمير الأريحي الذي كفّاه للبادي وللحاضر

(٣) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٣٤ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٥٦ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أنّ دهراً ردّ رجعَ جواب أو كفّ من شأويه طُولُ عَتابِ

(٥) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٣٤ .

بين معنى الآية الكريمة ومرادها والبيت الشعري ، فالآية الكريمة تتحدث عن الإعراض الذي كان نتيجة أمر صريح من الله تعالى لرسوله ﷺ بترك مجالستهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره [1] . أما بيت أبي تمام فيشير إلى التغابي ، ويدعو سادة القوم إلى التغاضي عمّا يصدر عن أقوامهم من مواقف ، ويؤكد أنّ سادة القوم يتقوّنَ بأقوامهم ؛ لذا عليهم التجاوز عن بعض الزلات بالتغاضي عنها . فالسياق مختلف تماماً ، والصلة بعيدة بين الآية الكريمة والبيت الشعري ؛ ومن هنا أرى أنه لا يوجد في البيت السابق اقتباس أو تلميح .

ولم يغفل المصنفون في فنون الكتابة والأدب وصناعة الإنشاء " عن بيان قيمة الاقتباس من القرآن والحديث ، بل جعلوهما – أي القرآن والحديث – في مقدم ما يحتاج إليه المنشئ والبليغ والشاعر من آلات بها قوام صنعته " [2] .

والألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم أو من الحديث النبوي الشريف " تزيد الكلام قوة وبلاغة ، كما تضفي عليه حسناً وجمالاً، إذ تبدو وسطه كالضياء اللامع والنور المشرق . والمتكلم عندما يقتبس يبني كلامه على الالتئام والتلاحم ؛ وبهذا يبدو كلامه قوياً بليغاً " [3] .

أما عن حكم الاقتباس من القرآن الكريم فنجد حوله كلاماً مفصلاً للعلماء المتقدمين ، مفاده الجواز ، وقد استدل العلماء على ذلك باقتباس الرسول ﷺ ، وكبار الصحابة (رضي الله عنهم أجمعين) [4] . " فمجيء الاقتباس القرآني في السنة دليل على إباحته، ومما يستدل به على الجواز – أيضاً – ثبوت الاقتباس بالأسانيد الصحيحة عن كبار الصحابة : كأبي بكر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل – رضي الله عنهم–، وثبوته كذلك عن التابعين ، ومن بعدهم الأئمة الأعلام ومشاهير الإسلام ... " [5] .

والاقتباس من حيث الحكم الشرعي ثلاثة أنواع :

– الأول : مقبول ، وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود .

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢ / ٣٣ .

(٢) الاقتباس : ٤٥ .

(٣) علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) : د . بسيوني فيّود : ٢٦٨ .

(٤) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٨٨ .

(٥) الاقتباس : ٦١ – ٦٢ .

– الثاني : مباح ، وهو ما كان في القول والرسائل والقصص .

– الثالث : مردود ، وهو على ضربين : أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه – ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه – . والآخر اقتباس آية في معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك [1] .

أما من حيث النوع فنوعان :

أحدهما : وهو ما لم يُنْقَل فيه اللفظ المُقتبَس عن معناه الأصلي إلى معنى غيره .

والآخر : وهو ما نقل عن معناه قبل الاقتباس ، كأن ينقل المقتبس عن معناه الأصلي إلى معنى آخر [2] .

واختلف البلاغيون حول قضية التغيير اليسير للوزن وغيره ، فالخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) رأى أنه لا بأس في ذلك ، ووافقه إبراهيم بن محمد عصام الدين الحنفي (ت ٩٤٣هـ) الذي أشار إلى أن الكلام المقتبس ليس من القرآن الكريم ، ولو أورده على أنه منه لما صحّ التغيير ، وابن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ) يجيز تغيير لفظ المقتبس بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير ، أو وضع الظاهر مكان المضمر ونحو ذلك ؛ لأن المنقول ليس بقرآن ، بل كلام يماثله . وخالفهم بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ) الذي أشار إلى أن في تسمية ما أصابه بعض التغيير اقتباساً نظراً ، ودعا إلى اجتنابه ، وتنزيه كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ منه [3] .

وصور التغيير اليسير متنوعة ، منها : حذف التنوين في الشعر لأجل الوزن والقافية ، وحذف حرف وحذف ضمير وحذف كلمة ، وتغيير حركة ، ووضع الظاهر موضع المضمر ، أو تبديل اللفظ بلفظ يساوي مفهومه ، أو وضع ضمير راجع إلى ما يساوي مفهومه مفهوم لفظ في المقتبس موضعه ، وقد تجتمع أكثر من صورة من الصور السابقة . أما التغيير الكثير فيخرجه عن كونه اقتباساً [4] . وأرى أنه لا بأس من التغيير اليسير ؛ لأن المقتبس ليس قرآناً حقيقة .

وأبو تمام – وهو موضوع هذه الدراسة– يعدّ من أكثر الشعراء العرب الذين تأثروا

---

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٣١٢ .

(٢) ينظر : الإيضاح : الخطيب القزويني : ٥٧٨ .

(٣) ينظر : التلخيص : ٤٢٢ – ٤٢٤ . والأطول : ٢ / ٥١٠ – ٥١٢ . وأنوار الربيع في أنواع البديع : ٢ / ٢١٩ – ٢٢٠ . وعروس الأفراح : ٤ / ٤٢٢ – ٤٢٣ .

(٤) ينظر : الأطول : ٢ / ٥١١ .

بالقرآن الكريم . وعبر أحد دارسيه عن عمق ذلك الأثر بقوله : " لا أعرف شاعراً من شعراء العربية تأثر بالقرآن تأثر أبي تمام به . فإن القارئ لا يكاد يمضي في الديوان . حتى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم "[1] .

استثمر أبو تمام ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه ومعانيه في إبداعه الشعري . فكان القرآن الكريم حاضراً في شعره ؛ مما أكسب تجربته الشعرية مزيداً من التوهج الفني والموضوعي . فمعانيه اكتسبت مزيداً من الوضوح . وعباراته بدت أكثر قوة وجمالاً ؛ وهكذا كان القرآن الكريم رافداً من روافد شعره التي أسهمت في تشكيل شخصيته الأدبية المتميزة .

وفي هذا المبحث ستتم دراسة حضور التراكيب القرآنية عبر الاقتباس في شعر أبي تمام من خلال الوقوف عند صور الاقتباس الواردة في شعره المتمثلة في الاقتباس دون تغيير . والاقتباس مع التغيير :

١- الاقتباس دون تغيير:

وفي هذه الصورة تُنقل الآية القرآنية الكريمة أو جزء منها دون تغيير في ألفاظها وحركاتها . ودون حذف أو زيادة . ومن خلال تتبعي شعر أبي تمام لم أعثر سوى على بيت شعري واحد يمثل هذه الصورة . وهو قوله :

فـاضَ اللئـامُ وغاضـت الأحـسابُ ... واجتُـثَّتِ العليـاءُ والآدابُ

فكـأنَّ يـومَ البعـثِ فاجـأهم فـلا ... أنـسابَ بيـنهم ولا أسـبابُ[2]

اقتبس أبو تمام قوله (فلا أنساب بينهم) من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (المؤمنون : ١٠١) .

أخذ أبو تمام جزءاً من الآية الكريمة السابقة دون أي تغيير . ولم ينقل معنى البيت عن المعنى الأصلي للآية الكريمة التي تحدثت عن يوم القيامة . إذ شبه أبو تمام في بيته حال ظهور اللئام واندثار العلياء والآداب . بحال يوم البعث الذي تبطل فيه الأنساب . فلا يعتدُّ بها ؛ " لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب . إذ يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه

---

(١) أبو تمام الطائي (حياته وحياة أدبه) : نجيب محمد البهبيتي : ٦٧ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣١٨ . مطلع قصيدة يهجو بها موسى بن إبراهيم الرافقي .

وصاحبته وبنيه "[1].

استثمر أبو تمام معنى الآية الكريمة في توضيح فكرته وتأكيدها، فجاء تشبيهه لحال اندثار العلياء والكرام وكثرة اللئام وعدم الاعتداد بأهل الفضل بحال يوم القيامة الذي تغيب فيه الأنساب ؛ ففي ذلك الموقف يبحث كل إنسان عن خلاصه من الموقف العصيب. وأضفى حضور جزء الآية القرآنية الكريمة دون أي تغير على بيت أبي تمام جلالاً وهيبة في المعنى، وقوة وتوهجاً في العبارة، وبخاصة أنه جاء في مطلع القصيدة، وفي مقام الهجاء، فكان الحديث عن يوم البعث والحساب مناسباً لإظهار حنق الشاعر من انتشار اللؤم وكثرة اللئام، ومنهم المهجو.

وكان حضور جزء الآية الكريمة السابقة في بيت أبي تمام دون أي تغيير – معبراً عن تأثره العميق بالقرآن الكريم، ومبرهناً – في الوقت ذاته – على موهبة فذة يمتلكها الشاعر مكنته من إحداث التمازج التام بين جزء الآية المقتبس والبيت الشعري، وكان التشبيه وسيلته في ذلك التمازج، فحافظ على قداسة القرآن الكريم، من خلال استثمار الآية القرآنية الكريمة في السياق نفسه الذي وردت فيه في القرآن الكريم، والمقاصد التي سيقت من أجلها.

٢– الاقتباس مع التغيير:

وفي هذه الصورة تُنقل الآية الكريمة أو جزء منها مع تغيير فيها، وتطالعنا في شعر أبي تمام صورٌ متنوعة لهذا النوع من الاقتباس، هي:

أ – تغيير يسير مراعاة للوزن والقافية، كحذف التنوين من كلمة مقتبسة في نهاية البيت الشعري، مراعاة للوزن والقافية، ومنه قول أبي تمام:

هم صَيَّروا تلك البُروقَ صَواعِقا فيهم وذاكَ العفوَ سَوْطَ عَذابِ[2]

أي هم الذين تعرضوا لغضب الممدوح الذي حلّ عليهم كالصواعق، وعفا عنهم بعد أن شفع فيهم أبو تمام، فكان عفوه عنهم بمثابة سوط عذاب. وقد اقتبس أبو تمام قوله (سوط عذاب) من قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣).

---

(١) الكشاف: ٣ / ١٩٨.

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٥٣. من قصيده يمدح فيها مالك بن طوق التغلبي، ومطلعها:

لو أن دهراً ردَّ رَجْعَ جوابِ أو كفَّ من شأويه طَولُ عِتابِ

نقل أبو تمام المقتبس عن معناه الأصلي ، ففي الآية الكريمة كان العذاب من الله تعالى ، والمراد " أنّ ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يُعذب به " [1] . أما في بيت أبي تمام فعفو الممدوح كان بمثابة سوط العذاب ، وحذف التنوين من كلمة (عذاب) في آخر البيت ؛ مراعاة للوزن والقافية .

وقوله :

شَهدْتَ لقد أوَى الإسلامُ منه غداتئذٍ إلى ركنٍ شديدِ [2]

أخذ أبو تمام قوله (إلى ركن شديد) من قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (هود : ٨٠) .

نقل أبو تمام الجزء المقتبس من الآية الكريمة عن معناه الأصلي ، فالآية الكريمة تحدثت عن موقف لوط (عليه الصلاة والسلام) من قومه لما رأى استمرارهم في غيهم وضعفَ عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، تمنى أن يكون له ركنٌ يأوي إليه ؛ ليمنعه منهم [3] . أما أبو تمام في بيته فجعل ممدوحه الركن الشديد الذي يأوي إليه الإسلام . وحذف التنوين من كلمة (شديد) في آخر البيت ؛ مراعاة للوزن والقافية .

وقوله :

تردّى ثيابَ الموت حُمراً فما أتى لها الليلُ إلا وهي من سُندسٍ خضرُ [4]

أخذ أبو تمام قوله (سندس خضر) من قوله تعالى : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الإنسان : ٢١) .

تصف الآية الكريمة السابقة النعيم الذي يعيش فيه أهل الجنة ، ومنه وصف ثيابهم . وأبو تمام أخذ المعنى جاعلاً ثياب الموت التي ارتداها مرثيّه في الليل بعد مقتله ، من سندس وإستبرق ، وهي ثياب أهل الجنة كما ورد في الآية الكريمة . ولم ينقل أبو تمام

---

(١) الكشاف : ٤ / ٧٣٦ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٥٣ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي ، ومطلعها :

أظُنُّ دموعها سَنَنَ الفريدِ وهي سلكاه من نحرٍ وجيدِ

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٥ / ٧٨ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢١٩ . من قصيدة يرثي بها محمد بن حُميد الطائي ، ومطلعها :

كذا فلْيَجِلَّ الخطْبُ ولْيَفْدح الأمرُ فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عُذرُ

معنى الآية المقتبسة عن معناها الأصلي ، إذ تحدثت الآية الكريمة عن ثياب أهل الجنة . وبيت أبي تمام تحدث عن ثياب مرثيه في الليل بعد مقتله . إذ أصبحت مثل ثياب أهل الجنة باعتبار المصير الذي سيؤول إليه مرثيه المجاهد في سبيل الله تعالى .

في الأبيات الثلاثة السابقة اقتبس أبو تمام من القرآن الكريم ، مع تغيير يسير تمثل في حذف التنوين من كلمات (عذاب ، شديد ، خضر) ، مراعاة للوزن والقافية ، والملاحظ أنّ الكلمات الثلاث جاءت في نهاية الأبيات الشعرية ؛ لذا حذف منها التنوين مراعاة للوزن والقافية .

وأشير هنا إلى أن ختم الأبيات الثلاثة بجزء مقتبس من الآيات القرآنية أكسبها مزيداً من القوة والجمال في التعبير . فكانت التراكيب القرآنية الكريمة هي آخر ما يطالعه المتلقي في تلك الأبيات .

ومن جانب آخر كان حضور الآيات القرآنية الكريمة : لفظاً ومعنى معبراً بجلاء عن عمق تشبع ثقافة أبي تمام بالقرآن الكريم . ومقدرته التي مكنته من مزج التراكيب القرآنية مع شعره ، مع مجرد تغيير يسير يتمثل في حذف التنوين من آخر الأبيات ، على الرغم من خصوصية الشعر الإيقاعية .

وفق أبو تمام في الجمع بين أسلوبين مختلفين بصورة فنية متميزة مع محافظته على قداسة القرآن الكريم ومكانته .

ب ـ **تغيير حركة مراعاة للموقع الإعرابي** ، ومنه قول أبي تمام :

جاءتك من نظم اللسان قِلادةٌ سِمطانِ فيها اللُّؤلُؤُ المكنونُ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (اللؤلؤُ المكنونُ) من قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الواقعة : ٢٣) .

في الآية الكريمة تشبيه الحور العين باللؤلؤ المكنون ، " أي الذي لم تمسه الأيدي . ولم يقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون صفاءً وتلألؤاً " [2]. أما بيت أبي تمام فشبه الشِعر باللؤلؤ

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٦٧ . من قصيدة يمدح بها الواثق بالله . ومطلعها :

وأبي المنازلِ إنها لشُجُونُ وعلى العُجومة إنها لَتَبينُ

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٧ / ٢٠٥ .

المكنون ، ناقلاً معنى المقتبس من معناه الأصلي إلى معنى آخر .

وقد أجاد أبو تمام في استثمار التركيب القرآني ، إذ جعل شعره في الممدوح صافياً متلألئاً كاللؤلؤ المكنون الذي لم تمسه الأيدي . وقد غيّر أبو تمام في حركة المقتبس ؛ مراعاة للموقع الإعرابي . فكلمتا اللؤلؤ والمكنون في الآية الكريمة جاءتا مجرورتين ، أما في بيت أبي تمام فجاءتا مرفوعتين .

وقوله :

إن شئتَ أتبعتَ إحساناً بإحسانٍ فكان جودك منْ رَوْحٍ وريحانِ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (روحٍ وريحانِ) من قوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الواقعة : ٨٩) . وغيّر في حركة المقتبس مراعاة للمواقع الإعرابي . ففي الآية الكريمة كانت كلمتا روح وريحان مرفوعتين . أما في بيت أبي تمام فجاءتا مجرورتين بالكسرة . والرَّوح بمعنى الرحمة . والريحان بمعنى الرزق [2] .

والروح والريحان في الآية الكريمة عطاء الله تعالى للمقربين من السابقين الذين جاء ذكرهم في بداية سورة الواقعة [3] . أما في بيت أبي تمام فكان عطاء الممدوح وسخاؤه من روح وريحان. وهكذا نقل أبو تمام في بيته معنى الآية الكريمة إلى معنى آخر . لكنه معنى مقبول ؛ لأنه لم ينسب إلى نفسه ما نسبه الله تعالى إلى نفسه . ولم يورد الكلام المقتبس في معنى فيه هزل .

وقوله :

كواعبٌ أترابٌ لغيداءَ أصبحتْ وليس لها في الحسنِ شكلٌ ولا تِرْبُ [4]

اقتبس أبو تمام (كواعبٌ أترابٌ) من قوله تعالى : ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (النبأ : ٣٣) . وكواعب جمع كاعب . وهي الناهد . والأتراب هم الأقران في السن . ومفردها ترب [5] .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٧٠ . مطلع مقطوعة يسأل فيها الحسن بن وهب أن يكلم أخاه سليمان في حاجة .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٧ / ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(٣) ينظر : سورة الواقعة : ١٠ – ١١ . وينظر : الكشاف : ٤ / ٤٤٦ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ١٠٣ . من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني . ومطلعها :

قد أخذتْ من دار ماويةَ الحقبُ أنَحْلٌ المغاني لِلْبِلى هي أم نَهْبُ ؟!

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٩ / ١٨٣ .

والمراد بـ (كواعب أتراباً) في الآية الكريمة الحور العين ، أما في بيت أبي تمام فهن صاحبات محبوبته . وهكذا نقل أبو تمام معنى الكلام المقتبس في بيته الشعري إلى معنى مخالف لما هو عليه في الآية الكريمة .

وأشير هنا إلى أنه على الرغم من أنّ أبا تمام أورد التركيب القرآني في سياق الغزل، إلا أنه غزل تقليدي جاء في مطلع القصيدة على عادة الشعراء ، وقد خلا من الفحش ، واقتصر على وصف ديار من يحب ، وسرعان ما انتقل إلى الغرض الرئيس لقصيدته ، وهو المدح .

ج – تغيير في الضمير ،كقول أبي تمام :

لا شمسه جمرةٌ تُشوى الوجوه بها يوماً ولا ظلهُ عنّا بمُنتقلِ [1]

اقتبس قوله (تشوي الوجوه) من قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الكهف : ٢٩) .

غيّر أبو تمام تغييراً يسيراً في جزء الآية المقتبس ، فبنى الفعل للمجهول ، ووضع التاء موضع (الياء) في الفعل (يشوي) ؛ لأن الفاعل في بيت أبي تمام قبل البناء للمجهول ضمير مستتر يعود على مؤنث مجازي التأنيث (جمرة) ، وحكم تأنيث الفعل هنا واجب التأنيث. ونقل المقتبس من معناه الأصلي في الآية الكريمة إلى معنى آخر ، فالآية الكريمة قدّمت صورة عن حال أهل النار ، والعياذ بالله تعالى ، ومن ذلك الحديث عن شرابهم وهو ما أُذيب من جواهر الأرض ، فإذا قُدّم ليُشْرب انشوى الوجه من حرارته [2]. بينما وصف أبو تمام في بيته حال ممدوحه الذي " لا يأتيك أذاه فيبلغ إليك إن كنت وليّه ، ولا ينطوي عنك نفعُه وخيرُه " [3].

د – تغيير لفظ بلفظ مساوٍ له في المعنى ، كقوله :

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٥ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

ما لي بعادية الأيام من قبل لم يَثْنَ كبدَ النوى كيدي ولا حيلي

(٢) ينظر : الكشاف : ٢ / ٦٩١ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٥ .

كيوسفَ لمَّا أن رأى أمر ربِّه وقد همَّ أن يَعْرَوِيَ الذَّنْبَ أحجَما [1]

أخذ أبو تمام (أن رأى أمر ربه) من قوله تعالى : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف : ٢٤) .

تحدث أبو تمام في البيت السابق عن هيبة ممدوحه في نفوس أصحابه ، وساق موقف أحدهم من الشجعان الذي كاد يتراجع عن القتال في الميدان من شدة ما واجه من الأعداء ، لكن هيبة الممدوح منعته من ذلك . وشبه أبو تمام حال هذا الشجاع بموقف يوسف (عليه الصلاة والسلام) حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فانصرف عنها بعد أن رأى برهان ربه . وأسهم استحضار التركيب القرآني المعبر عن موقف يوسف (عليه الصلاة والسلام) في توضيح المعنى المراد التعبير عنه ، وأسهم – أيضاً – في إكساب التعبير مزيداً من القوة والجمال والهيبة .

وغيّر أبو تمام لفظاً بلفظ يساوي مفهومه ، فقوله : أمر ربه قريب من برهان ربه . ولم ينقل معنى المقتبس من الآية الكريمة عن المعنى الأصلي ؛ لأنه ساق الجزء المقتبس من الآية الكريمة على سبيل التشبيه ، أي أنه استحضره ؛ لمجرد أن يشبه به حال ممدوحه مع أتباعه وأصحابه .

وفي هذا المقام لا بد من الإشارة إلى اختلاف الموقفين ، فيوسف (عليه الصلاة والسلام) انصرف عن ارتكاب المعصية بعد أن رأى برهان ربه ، وكتب التفسير ذكرت آراء عدة للمقصود بالبرهان [2] ، أما في بيت أبي تمام فانصراف الشجاع عن التقهقر كان بسبب تذكر هيبة الممدوح واستحياء منه ، وشتان بين الحياء من الله تعالى والحياء من البشر !

وقوله :

مَكْراً بنى ركْنيه ، إلا أنه وَطَدَ الأساسَ على شفير هارِ [3]

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٢٠ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلّما وأن تُعتِبَ الأيامُ فيهم فربما

(٢) ينظر : الكشاف : ٢ / ٤٣٩ – ٤٤٠ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٦ .من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

اقتبس أبو تمام (على شفير هارٍ) من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (التوبة : ١٠٩).

الآية الكريمة تحدثت عن الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار ، ووازنت بينهم وبين الرجال الذين أسسوا مسجد قباء . والجرف " ما جرف السيل . أي استأصله واحتفر ما تحته . فبقي واهياً يريد الانهدام . والهار : الهائر المتصدع المشرف على السقوط من هار يهور أو هار يهير ... " [١].

أخذ أبو تمام التركيب القرآني (جرف هار) ووصف به مكر (الأفشين) للخليفة العباسي المعتصم بأنه مكر بُني على غير أصل [٢] . وغيّر أبو تمام لفظاً بلفظ مساوٍ له بالمفهوم . فقوله (شفير هارٍ) قريب من جُرُف هارٍ في المعنى [٣] . ونقل أبو تمام معنى المقتبس من القرآن الكريم . إذ وصفت الآية القرآنية الكريمة مسجد الضرار بضعف البنيان . أما بيت أبي تمام فوصف مكر الأفشين بالضعف .

عمّق الاقتباس من الآية السابقة الفكرة التي قدّمها الشاعر في بيته، وأغنى تجربته الشعرية من خلال امتزاجها بالأسلوب القرآني الفريد المعجز .

هـ – تغيير في بناء الكلمة المقتبسة ، كقوله :

من القِلاصِ الخور والجلاد والمُقْرِبات الصُّفْنِ الجيادِ [٤]

اقتبس أبو تمام قوله (الصَّفْن الجياد) من قوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ (ص : ٣١) . وغير في بناء الكلمة المقتبسة . فجاء بكلمة الصّفن بدلاً من الصافنات الواردة في الآية الكريمة ؛ مراعاة للوزن .

والصافنات جمع صافن . والمراد " الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر ؛

الحقُّ أبلج والسيوف عوارٍ فحذارٍ من أسدِ العرينِ حذارِ

(١) تفسير أبي السعود : ٢ / ١٠٣ .

(٢) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٥ – ٣٣٦ .

(٣) ينظر : أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره) : ٦٧ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤١٧ . من قصيدة يصف فيها المطر . ومطلعها :

حَمَادِ من نَوءٍ له حَمَادِ في ناحِراتِ الشّهرِ . لا الدَّآدِ

كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها " [1].

والآية الكريمة وصفت جياد نبي الله سليمان (عليه الصلاة والسلام) بالصفون والجودة ، فجمعت " بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية . يعني : إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها " [2].

وأبو تمام في بيته لم ينقل الكلام المقتبس من معناه الأصلي ، إذ أورده في بيته لوصف الجياد الأصيلة المحمودة ، وهو المعنى نفسه الوارد في القرآن الكريم .

و – تغيير بتقديم أو بتأخير ، كقوله :

ثانيهِ في كَبِدِ السماء ولم يكن لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار [3]

اقتبس أبو تمام (لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار) من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة : ٤٠) . وقدّم أبو تمام اثنين على ثاني مراعاة للوزن .

تحدث أبو تمام في قصيدته عن الأفشين الذي قتله المعتصم ، أما ثانيه فشخص يدعى (مازيار) قُتل – أيضاً – ، " والمعنى أن هذا الرجل ثانٍ للآخر ، وهما مذمومان ، واللذان كانا في الغار محمودان " [4] .

والملاحظ أن أبا تمام أورد جزء الآية الكريمة على سبيل المفارقة بين حالين ، فالآية الكريمة تحدثت عن اثنين محمودين ، هما الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ، أما بيت أبي تمام فأشار إلى اثنين مذمومين ، كان مصيرهما القتل .

وقد أسهم حضور التركيب القرآني في إغناء الموقف الشعري ، وتعميق الفكرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ١٩٢ .

(٢) الكشاف : ٤ / ٨٩ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ . من قصيده يمدح بها المعتصم . ومطلعها :

رقت حواشي الدّهر فهي تمرمرُ وغدا الثّرى في حَلْيِه يتكسّرُ

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ .

المطروحة وتوضيحها ، وإكساب الأسلوب قوة وجمالاً وهيبة من خلال امتزاجه مع التركيب القرآني المعجز الفريد .

والبيت السابق من الشواهد التي استشهد بها أبو منصور الثعلبي على الاقتباس . وقد علّق على الآية الكريمة بقوله : " وقال في مصاحبته رسول ﷺ في الغار : (ثاني اثنين إذ هما في الغار) ، حتى صارت هذه الكلمة مثلاً لكل متآخيين متصافيين يقتربان ، ولا يكادان يفترقان " [1] .

ز – الاقتباس مع التغيير باجتماع أكثر من صورة :

ومن صور التغيير في المقتبس اجتماع أكثر من صورة ، ومن ذلك حذف حرف وتغيير في الحركة ، كقوله :

طوى أمرهم عنوةً في يديه طيَّ السَّجِلّ وطيَّ الرِّداءِ [2]

اقتبس أبو تمام قوله (طيَّ السجل) من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) . وغيّر بحذف كاف التشبيه من المقتبس ، وتبعاً لذلك غيّر حركة إعراب كلمة (طيّ) ، ففي الآية الكريمة كانت مجرورة ؛ لأنها سُبقت بالكاف ، أما في بيت أبي تمام فجاءت منصوبة على المفعولية .

والسجل : " الصحيفة ، أي : كما يطوي الطومار للكتابة ؛ ليكتب فيه ... وقيل : السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه " [3].

ولم ينقل أبو تمام المعنى المقتبس إلى معنى آخر ، لكنه عمد إلى استثمار الصورة القرآنية في معنى آخر، فالآية القرآنية شبّهت طي السماء يوم الفزع الأكبر بطي الصحيفة على ما فيها ، بينما شبه أبو تمام في بيته قضاء مرثيه على أعدائه الأقوياء وإذلالهم ومنعهم من الظهور والبروز بطي السجل وطي الرداء .

استثمر أبو تمام جزء الآية الكريمة المقتبس في توضيح فكرته وتعميقها ، فالمرثي

---

(١) الاقتباس من القرآن : ١ / ١٠٨ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٩٣ . من قصيدة يرثي بها خالد بن يزيد الشيباني ، ومطلعها :

نعَاءِ إلى كل حيٍّ نعاءِ فتى العرب احتل رَبعَ الفناءِ

(٣) الكشاف : ٣ / ١٣٤ .

الذي قضى على أعدائه الأقوياء جدير بالأوصاف التي وصفه بها الشاعر في قصيدته ، ومن جانب آخر كان لحضور الصورة القرآنية في نهاية البيت أكبر الأثر في منح أسلوبه قوة وهيبة ، وعبّرت عن تشرب الشاعر أسلوب القرآن الكريم ، وامتزاجه بشعره بصورة جميلة مؤثرة .

ومنه اجتماع حذف الضمير والتنوين ، كقوله :

هي بيعة الرضوانِ يُشْرعُ وَسْطَها بابُ السلامِ فادخلوا بسلامِ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (فادخلوا بسلام) من قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر : ٤٦) . وحذف الضمير (الهاء) من الكلام المقتبس ، وحذف التنوين من كلمة (بسلام) ؛ مراعاة للوزن والقافية .

والآية القرآنية تحدثت عن الجنة ، أما أبو تمام في بيته فأراد البيعة للخليفة العباسي الواثق ، وجعلها باب السلامة للأمة ، ومركب النجاة .

وهكذا نقل أبو تمام الكلام المقتبس عن معناه الأصلي إلى معنى آخر ، لكنه معنى مقبول ؛ لأنه لم يعبث فيه بآيات الله تعالى .

ومنه وضع الظاهر موضع المضمر ، وحذف التنوين ، كقوله :

ذاك الذي إنْ كان خِلَّكَ لم تقلْ يا ليتني لم أتَّخذه خليلا [2]

اقتبس أبو تمام قوله (يا لتني لم أتخذه خليلاً) من قوله تعالى : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الفرقان : ٢٨) . ووضع الضمير (الهاء) موضع الاسم الظاهر (فلاناً) ، وحذف التنوين من كلمة (خليلاً) ؛ مراعاة للوزن والقافية .

والحديث في الآية الكريمة كان عن عقبة بن أبي معيط ، أما فلان فأمية بن خلف ، " وكنى عنه ولم يصرح باسمه ؛ لئلا يكون هذا الوعد مخصوصاً به ولا مقصوراً ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما " [3].

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٠٢ . من قصيدة يمدح بها الواثق ، ويهنئه بالخلافة ، ومطلعها :

ما للدُّموع تَرُوم كلَّ مرامِ والجفْنُ ثاكِلُ هجعةٍ ومنامِ !

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٥ . من قصيدة يمدح بها نوح بن عمرو السَّكسكيَّ . ومطلعها :

يومَ الفراق لقد خُلقتَ طويلاً لم تُبْقِ لي جَلَداً ولا معقولا

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ٢٦ .

وقد نقل أبو تمام معنى الآية المقتبسة إلى معنى آخر ، لكنه أجاد في استثماره ، إذ جاءت في ختام قصيدته . فبعد أن أسبغ على ممدوحه من المدح أجوده ، جاء البيت الأخير مؤكداً كل تلك الصفات الحميدة التي ذكرها في قصيدته ، ومشيراً إلى غيرها من الصفات التي لم يصرح بها في القصيدة ، فيكفي أنّ من يتخذ هذا الممدوح خلاً وصاحباً لن يندم على ذلك .

وأشير هنا إلى أنّ حضور التركيب القرآني في نهاية القصيدة كان موفقاً من قبل أبي تمام ، حيث أسهم في توضيح المعنى وتعميقه وتوكيده ، ومنح الأسلوب مزيداً من القوة والجمال .

ومنه زيادة الألف للإشباع ووضع الظاهر موضع المضمر ، كقول أبي تمام :

كان الذي خِفْتُ أن يكونا إنّا إلى الله راجعونا [1]

أخذ أبو تمام قوله (إنّا إلى الله راجعونا) من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة : ١٥٦) . " فقوله : إنّا إلى الله راجعونا اقتباس ، لكنه زاد الألف في راجعون على جهة الإشباع ، وأتى بالظاهر مكان المضمر في قوله : إنّا لله وإنّا إليه ، ومراده آية الاسترجاع ، وهي إنّا لله وإنّا إليه راجعون " [2] .

ولم ينقل أبو تمام معنى المقتبس عن معناه الأصلي ، فالآية الكريمة تحدثت عن موقف المؤمنين عند وقوع المصيبة ، وبيت أبي تمام جاء في المعنى نفسه ، إذ وضع المقتبس من الآية القرآنية الكريمة في السياق نفسه الذي وردت فيه ، والمقصد الذي سيقت من أجله ، فالمصيبة التي حلت به تمثلت في موت أحد أبنائه الذي كان يتوسم فيه الخير والصلاح ، وجاء بيت أبي تمام في مطلع مقطوعة مكونة من خمسة أبيات في رثاء ذلك الابن . واستثمار جزء الآية في مطلع المقطوعة جاء مؤكداً إيمانه بقضاء الله وقدره ، ومعبراً عن صبره .

والملاحظ أن المقتبس جاء في الشطر الثاني كله ، وامتزج مع شعر أبي تمام الذي اكتسب جلالاً وهيبة وقوة في المعنى والعبارة ، وبخاصة أنه استثمر الكلام المقتبس في غرض شعري هو من أكثر أغراض الشعر صدقاً ، وهو الرثاء ، وأي رثاء ، إنه رثاء الابن.

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٥٠٢ . مطلع مقطوعة يرثي بها ابناً له .

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع : ٢ / ٢٢٠ .

وكقوله :

فاشدد بهارونَ الخلافةَ إنه سكنٌ لِوَحشَتِها ودارُ قرارِ [1]

اقتبس أبو تمام بيته السابق من قوله تعالى : ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ۝٢٩ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴾ (طه : ٣٠ – ٣١) . ووضع الظاهر (هارون) موضع المضمر (الهاء) ، وزاد الفاء . ونقل المعنى إلى معنى آخر ، فالآية الكريمة تحدثت عن طلب موسى (عليه الصلاة والسلام) من الله تعالى أنّ يشرك أخاه هارون (عليه الصلاة والسلام) في أمره . أما بيت أبي تمام فكان بمثابة الدعوة منه إلى أن يجعل الخليفة المعتصم ابنه الملقب بالواثق ولياً للعهد .

ومنه التغيير في بنية كلمة من الكلام المقتبس والتقديم والتأخير ، كقوله :

هديةً من صمدٍ جواد ليس بمولود ولا ولاَّد [2]

أخذ أبو تمام قوله (ليس بمولود ولا ولاَّد) من قوله تعالى : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص : ١ – ٤) .

واجتمع في البيت السابق التغيير في بنية الكلام المقتبس ، والتقديم والتأخير ، إذ وضع ولاّد موضع يلد ، ومولود موضع يولد ، وقدّم بمولود على ولاَّد ، وغيّر في بنية المقتبس ، وذلك كله مراعاة للوزن والقافية .

ولم ينقل أبو تمام معنى المقتبس عن معناه الأصلي في الآية الكريمة التي وصفت الله تعالى بأنه لم يلد ولم يولد ، وبيت أبي تمام – أيضاً – جاء في وصف الله تعالى والثناء على عطائه الذي منّ به على عباده . وقد أضفى حضور التركيب القرآني في الشطر الثاني على البيت الشعري مزيداً من التأنق في التعبير والقوة والعمق في المعنى ، يضاف إلى ذلك أن ورود كلمة (صمد) في الشطر الأول – وهي – أيضاً – وردت في الآية السابقة للآية المقتبسة من السورة نفسها – منح البيت الشعري مزيداً من القوة والجمال ، من خلال امتزاج التراكيب القرآنية في شعر أبي تمام بصورة جلية واضحة ، تعبر عن تأثر عميق بالأسلوب القرآني الفريد المعجز .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤١ . من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

الحقُّ أبلجُ والسيوف عوارِ فحذارِ من أسد العرينِ حذارِ

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤١٧ . من قصيدة يصف فيها المطر ، ومطلعها :

حَمَادِ من نَوءٍ له حَمَادِ في ناجِراتِ الشَّهرِ ، لا الدَّادِ

ومنه التغيير في بنية أكثر من كلمة وحذف التنوين، كقوله:

ثُمَّ برعدٍ صَخِبِ الإرعاد يَسلُقُها بألْسُنٍ حدادِ [1]

اقتبس أبو تمام (يسلقها بألسن حداد) من قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الأحزاب : ١٩).

وغيّر في بناء الكلمة المقتبسة، فجاء بكلمة (يسلقها) بدلاً من كلمة (سلقوكم)، وجاء بكلمة (ألسن) بدلاً من كلمة (ألسنة)، وحذف التنوين من كلمة (حداد)؛ وذلك مراعاة لاختلاف الخطاب، ومراعاة للوزن والقافية.

ونقل معنى المقتبس إلى معنى آخر، فالآية الكريمة تحدثت عن حال المنافقين [2]، بينما وصف بيت أبي تمام قوة الرعد في قصيدته التي يصف فيها المطر. وقد أجاد أبو تمام في استثمار الصورة القرآنية الكريمة التي عبرت عن حال المنافقين بعد تحقق النصر في المعركة، فتحول الخوف إلى جرأة، وكانت مطالبتهم للغنيمة بألسنتهم قوية قوة الحديد، ونقل أبو تمام هذه الصورة الرائعة إلى شعره، مجسداً قوة الرعد.

ومنه زيادة حرف وكلمة وحذف التنوين، كقوله:

صافي الأديمِ كأنما ألبستهُ من سُنْدُسٍ بُرداً ومن إستبرَقِ [3]

أخذ قوله (من سُنْدُسٍ بُرداً ومن إستبرَقِ) من قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الكهف : ٣١).

اجتمع في البيت السابق زيادة حرف الجر (من)، وزيادة كلمة (بُرد)، مع وجود كلمة مساوية لها في المفهوم في الآية المقتبسة، وهي كلمة (ثياب)، وحذف التنوين من

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٤١٧. من قصيدة يصف فيها المطر، ومطلعها:

حَمَادِ من نَوءٍ له حَمَادِ في ناجِراتِ الشَّهرِ، لا الدَّادِ

(٢) ينظر: الكشاف: ٣ / ٥١٤.

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٤٤٥. من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب، ومطلعها:

يا برق طالعْ منزلاً بالأبرقِ واحْدُ السحابَ له حُداءَ الأينُقِ

كلمة (إستبرق) ؛ مراعاة للوزن والقافية .

ولم ينقل أبو تمام المعنى المقتبس من معناه الأصلي في الآية الكريمة ؛ لأنه أورده على سبيل التشبيه ، فالآية الكريمة وصفت ثياب أهل الجنة ، بينما شبه أبو تمام لون فرسه بتلك الثياب . وكان لحضور التركيب القرآني مع بعض التغيير فيه أكبر الأثر في توضيح المعنى وتقريبه من خلال تشبيه لون الفرس بلون ثياب أهل الجنة .

– ومنه وضع ضمير موضع ضمير آخر ، وزيادة كلمة ، وتغيير في حركة كلمة من الآية المقتبسة ، كقوله :

لك في رسولِ اللهِ أعظمُ أسوةٍ وأجلُّها في سنة وكتابِ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (لك في رسول الله أعظم أسوة) من قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

في الاقتباس السابق اجتمعت تغييرات عدة ، إذ وضع أبو تمام (لك) موضع لكم، وزاد كلمة (أعظم) ، وغير حركة كلمة (أسوة) من الرفع إلى الجر ؛ تبعاً لاختلاف الموقع الإعرابي والمخاطب .

ولم ينقل أبو تمام معنى المقتبس من معناه الأصلي في الآية الكريمة . ففي الآية الكريمة توجيه من الله تعالى باتخاذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة ، وفي بيت أبي تمام دعوة الممدوح ـ أيضاً – إلى اتخاذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة . ومجيء الكلام المقتبس في صدر البيت السابق كان موفقاً من قبل الشاعر ، فبعد أن دعا الممدوح – في الأبيات السابقة – إلى العفو عن قومه ، بيّن له أن التحلي بصفة العفو فيه اتباع لسنة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله :

طللُ الجميعِ ، لقد عفوتَ حميدا وكفى على رُزْئي بذاك شهيدا [2]

جاء هذا البيت في مطلع القصيدة ، وهو من أنسب المواضع لعرض الشكوى وبثها ، وأشار فيه الشاعر إلى تأثره بفراق أهل الديار ، بل جعل الديار تتأثر بفراق ساكنيها .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١/ ٥٥ . من قصيده يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أن دهراً ردَّ رَجْع جوابِ أو كفَّ من شأويه طُولَ عِتابِ

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢١٧ . مطلع قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني .

اقتبس أبو تمام قوله (وكفى على رزئي بذاك شهيدا) من قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ (النساء : ٧٩) .

وغيّر أبو تمام في الآية الكريمة بإضافة (على رُزئي) ، ووضع (بذاك) موضع لفظ الجلالة (الله) ، وحذف التنوين من كلمة (شهيداً) مراعاة للوزن والقافية ، ولاختلاف سياق الكلام المقتبس عن السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة ، إذ نقل الكلام المقتبس من معناه الأصلي في جزء الآية إلى معنى آخر ، فالله تعالى هو الشاهد على الناس في الآية الكريمة ، أما في بيت أبي تمام فكان الشاهد على ما أصاب الشاعر من حزن بعد فراق أهل الديار هو تأثر الديار بفراق أهلها ، فإذا كان الجماد الذي لا يحس ولا يشعر قد تأثر بفراق ساكنيه ، فكيف يكون حال الشاعر !

وقوله :

فصّلن منه كل مجمعٍ مفصلٍ وفَعَلْنَ فاقِرَةً بكل فَقَارِ [1]

أخذ أبو تمام (وفَعَلْنَ فاقرة) من قوله تعالى : ﴿ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ (القيامة : ٢٥) ، أي " تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وفظاعته (فاقرة) داهية تقصم فقار الظهر " [2] .

ونقل أبو تمام معنى جزء الآية المقتبس من معناه الأصلي ، إذ تحدثت الآية الكريمة عمّا يتوقع الكفار أن يفعل بهم في الآخرة . أما أبو تمام في بيته فوصف النار التي أُحرق بها الأفشين (خيذر بن كاوس) ، إذ فصلت النار أعضاءه ، فتفرقت عن بعضها [3] . وقد جاء الاقتباس في سياق تحقيق التهويل والتعظيم لما حلّ بالأفشين ، فكان العذاب الذي يتوقعه العصاة يوم القيامة وسيلة الشاعر لتحقيق المعنى الذي يرنو إليه وتأكيده .

وغيّر أبو تمام في بناء الفعل (فعلن – يُفعل) ، وفي حركة إعراب كلمة (فاقرة). قال أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) : " إنما قال : وفعلن ، فخصّ هذه اللفظة لقول الله جل و عزّ

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٨ . من قصيدة يمدح بها المعتصم . ومطلعها :

الحقُّ أبلج والسيوف عوارِ فحذارِ من أسدِ العرينِ حذارِ

(٢) الكشاف : ٤ / ٦٥٠ .

(٣) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٥ – ٣٣٨ .

: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [1] . ولقول الناس : فعل به الفواقر ، أي الدواهي " [2].

– وبالنظر إلى النماذج السابقة باعتبار نقل معنى المقتبس من معناه الأصلي الوارد في القرآن الكريم إلى معنى آخر يمكن وضعها في صور أربع ، هي :

١ – مجيء معنى المقتبس في السياق نفسه الذي ورد فيه في كتاب الله تعالى ، وهذه الصورة هي الأكثر حضوراً في شعر أبي تمام .

٢ – إيراد الكلام المقتبس على سبيل التشبيه ، وذلك من خلال تشبيه شيء أو موقف أو حالة بآية قرآنية أو جزء من ، وذلك لتوضيح المعنى وتقويته وتأكيده .

٣ – نقل معنى المقتبس إلى معنى آخر مختلف عن المعنى الذي ورد فيه في القرآن الكريم ، مع المحافظة على قداسة القرآن الكريم ، من خلال تجنب العبث بآياته ، وقلب مفاهيمه ، وإيراده في مقام الهزل والفحش ، والعياذ بالله .

والصور الثلاث السابقة هي الأكثر حضوراً في شعر أبي تمام ، وهي مقبولة شرعاً .

أما الصورة الرابعة فتمثلت في نقل الكلام المقتبس إلى معنى لا يتناسب مع قداسة القرآن الكريم .وتعدُّ هذه الصورة من الاقتباس المرفوض والمردود الذي جعله العلماء الذين تحدثوا عن حكم الاقتباس من القرآن الكريم ضربين : الأول : نقل ما نسبه الله تعالى إلى نفسه ، والآخر : اقتباس آية في معنى هزل [3] .

وقد وردت نماذج قليلة في شعر أبي تمام تمثل هذه الصورة ، كقوله متغزلاً :

فاعذلوا فيه كيف شئتم وقولوا قد كفى الله المؤمنينَ القتالا [4]

أخذ أبو تمام قوله (كفى الله المؤمنين القتالا) من قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأحزاب : ٢٥) . وزاد حرف الألف على كلمة (القتال) ؛ لإشباع القافية أو إطلاقها .

وبالنظر إلى السياق الذي جاءت فيه الآية الكريمة وبيت أبي تمام أرى أنه لم يوفق في

---

(١) القيامة : ٢٥ .

(٢) أخبار أبي تمام : ٩٥ .

(٣) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٣١٢ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٩١ . من مقطوعة يتغزل بها ، ومطلعها :

وجد الحاسدون فينا مقالا فوَّقُوا أسهماً لنا ونبالا

الاقتباس من هذه الآية الكريمة ، لأنه نقل الجزء المقتبس من الآية الكريمة من معناه الأصلي إلى معنى فيه غزل . والأولى تنزيه كلام الله تعالى عن الخوض في مثل هذه المعاني .

وقوله متغزلاً – أيضاً – :

هاكَ فاقتَصَّ مِنْ هواكَ فإن (م) السِّنَّ بالسن والجُرُوحُ قِصاصُ[1]

اقتبس أبو تمام قوله (السنَّ بالسنِّ والجروحُ قصاصُ) من قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (المائدة : ٤٥) .

غيّر أبو تمام حركة إعراب كلمة (الجروح) التي جاءت في الآية الكريمة منصوبة بالفتحة ، بينما جاءت في بيت أبي تمام مرفوعة بالضمة ، وكان يستطيع أن يبقيها كما جاءت في الآية ، فتكون الواو حرف عطف ، والجروح معطوفة على اسم (إن) السن .

ونقل أبو تمام المقتبس من معناه الأصلي الذي جاء في الآية الكريمة ، إلى معنى آخر في سياق الغزل ، إذ بينت الآية الكريمة المنهج الرباني القويم في تنظيم العلاقة بين المتنازعين في صور شتى ، بينما جاء بيت أبي تمام في سياق الغزل ، والأولى تنزيه كلام الله تعالى عن إقحامه في معانٍ لا تتفق مع منزلته .

والنموذجان السابقان يعدان من النماذج النادرة التي جاءت في شعر أبي تمام لاقتباس آية أو جزء من آية في معنى غير مناسب لمنزلة القرآن الكريم ومكانته .

وأشير في هذا المقام إلى أن الثعالبي عقد فصلاً في كتابه (الاقتباس من القرآن) للاقتباس المكروه،سماه الخروج عن حد الاقتباس [2]، ومن الأمثلة التي قدّمها قول أبي تمام :

أيُّهذا العزيزُ قد مسنا الضرُّ م جميعاً وأهلنا أشتاتُ

ولنا في الرجال شيخٌ كبيرٌ ولدينا بضاعةٌ مُزجاةُ

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٧٩ . من مقطوعة يتغزل بها . ومطلعها :

لي – لا كان – من هواك خلاصُ وبجسمي ولا بك الإنتقاصُ

(٢) ينظر : الاقتباس من القرآن : ٢ / ٥٧ .

قـلّ طُـلّابُها فأضـحتْ خَـسَاراً فَتِجَارَاتُـنا بـها ترّهـاتُ [1]

اقتبس أبو تمام الأبيات السابقة من قوله تعالى :﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يوسف : ٧٨) . ومن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (يوسف : ٨٨) .

والممدوح في الأبيات السابقة علّق عليها قائلاً : " قولوا لأبي تمام لا تُعاود مثل هذا الشعر ، فإن القرآن أجلُّ من أن يُستعار شيء من ألفاظه للشعر " [2] .

والثعالبي عدّ اقتباس أبي تمام السابق مكروهاً ، وذهب إلى أنّ أبا تمام قد أساء فيه ، لأنّه أفرط في استثمار ألفاظ القرآن في سياقات لا تليق به [3] .

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن للقرآن الكريم مكانة وقداسة لا يمكن المساس بهما ، وعلى الأديب الذي يتجه إلى مزج كلامه بكلام الله تعالى أن يراعي السياقات التي يورده فيه ، فلا يورد كلام الله تعالى في سياقات فيها هزل وفحش ، أو أن ينسب الأديب إلى نفسه أو إلى ممدوحه أو مرثيه صفة من الصفات التي اختص الله تعالى بها .

وإجمالاً يمكن القول : إنّ الاقتباس من القرآن الكريم بصوره المتعددة يعدّ صورة من صور تأثر أبي تمام بألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه، ويمكن إرجاع ذلك إلى طبيعة الاقتباس، ففيه يمكن للشاعر أن يتصرف بصور متنوعة ، مما يمكنه من مراعاة طبيعة الشعر الإيقاعية .

ومن جانب آخر فإن الكلام المقتبس لا يعدّ قرآنا ، فالتغيير اليسير فيه مقبول ، ونقل المعنى إلى معنى آخر ، مع مراعاة قداسة القرآن الكريم – يعدّ أمراً مقبولاً – أيضاً – .

وبعد ، فإن أبا تمام قد وفق في الأخذ عن القرآن الكريم بصورة مباشرة عن طريق الاقتباس ، إلا في مواضع قليلة أشرت إليها في دراستي. وقد وصف أحد النقاد اقتباسات أبي تمام من القرآن الكريم بأنها تعدّ " مُثُلاً خلّابة لحسن الاستفادة ، وسلامة الذوق ،

---

(١) أخبار أبي تمام : ٢١١ . أبيات قالها أبو تمام في عبد الله بن طاهر . ولم ترد هذه الأبيات في ديوان أبي تمام .

(٢) أخبار أبي تمام : ٢١١ .

(٣) ينظر : الاقتباس من القرآن : ٢ / ٥٧ . و : وجه الشعر (قراءة في مآخذ النقاد على معاني أبي تمام) : د . عبد الله الوشمي : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

وحلاوة العبارة " [1] .

ووفق في الجمع بين أسلوبين مختلفين بصورة فنية ، مع التأكيد أن الجمع بين أسلوبين مختلفين يحتاج إلى مهارة فنية ، وقدرة على المزج بينهما ، وبخاصة إذا كان القرآن الكريم هو الأسلوب الذي عمل الشاعر على مزج شعره به ، لكن أبا تمام بما عرف عنه من مواهب فنية وثقافة متنوعة ، وفق في ذلك ، فمنح الأسلوب القرآني الكريم شعرَ أبي تمام جمالاً في العبارات ، واتساعاً في المعاني ، وهكذا بدت كثير من النماذج الشعرية المتأثرة بالقرآن الكريم أكثر تأثيراً وجمالاً ووضوحاً .

لقد وجد أبو تمام في ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه معيناً خصباً ، فامتاح منه ، فجاء شعره في كثير من نماذجه مبهراً ومدهشاً ومؤثراً ، نقل القارئ إلى الأجواء القرآنية الروحية ، وإلى ذلك البيان المعجز الفريد ؛ لذا كانت وما زالت تجربة أبي تمام الشعرية تجربة غنية فريدة ، ومحطة مهمة من محطات الشعر العربي عبر عصوره المتلاحقة .

– المبحث الثالث – العقد :

العقد لغة : " نقيض الحل ، عقده يعقِده عقداً وتعاقداً " [2] .

أما اصطلاحاً فهو " أن يؤخذ الكلام النثر ، فينظم ، لا على طريق الاقتباس ، أي لا كما يفعل في الاقتباس ، سمي عقداً ؛ لأنه كان نثراً محلولاً فصار نظماً معقوداً بالوزن " [3].

والفرق بين الاقتباس والعقد يتمثل في " أن العَقْد يكون فيه التصريح بالقول لما يراد تضمينه ، فإنه – أي العقد – نظم كلام منثور من القرآن أو السنة أو غيرهما على الحكاية ، فيقال : قال الله كذا ، أو قال الرسول ﷺ كذا ، خلافاً للاقتباس ، فلا تصريح فيه بالقول " [4] .

ويعدُّ العقد بمفهومه في التراث البلاغي والنقدي عند العرب صورة من صور التناص المباشر في الدراسات النقدية الحديثة [5] ؛ لأن حضور النص السابق في النص اللاحق

---

(١) أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره) : ٦٩ .

(٢) لسان العرب : مادة (عقد) .

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : ٢ / ٤٢٤ .

(٤) الاقتباس : ٢١ .

(٥)) ينظر : القصة بين التراث والمعاصرة : ٢١٠ .

والتناص في شعر الرواد : ١٠٦ – ١٠٨ .

يكون بصورة مباشرة .

وأمثلة العقد في ديوان أبي تمام نادرة ، إذ لم أعثر سوى على شاهدين ، هما : –

– الأول ، قوله :

قد كان وعدُكَ لي بحراً فصيَّرني ... يوم الزِّماع إلى الضحضاح والوشلِ

وبَيَّنَ اللهُ هذا مِنْ بريَّته ... في قَوْله " خُلِقَ الإنسانُ من عجلِ " [1]

عقد أبو تمام جزءاً من قوله تعالى :﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (الأنبياء : ٣٧) .

في الآية الكريمة السابقة نهى الله تعالى الإنسان عن الاستعجال ، وبين أنه مطبوع عليه ، " كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم " [2] .

بين أبو تمام في بيتيه السابقين أن حرمانه من نيل العطاء الجزيل يرجع إلى الاستعجال الذي يعدّ سجية وطبعاً جُبل عليه الإنسان .

– والآخر ، قوله :

جعل الخلافة فيه رَبٌّ قولُه ... سبحانه للشيء " كن فيكون " [3]

عقد أبو تمام جزءاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس : ٨٢) . أي لا يحتاج إلى جهد أو تعب ، ولا يمتنع عليه شيء من المكونات [4] . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل : ٤٠) . واستدل بقوله تعالى على أن وصول الخلافة إلى ممدوحه وانقيادها له أمر مقدر من الله تعالى ؛ وبهذا يكون أبو تمام قد رفع منزلة ممدوحه ، وأصبغ عليه مزيداً من الشرعية .

ويلحظ أن أبا تمام في النموذجين السابقين عقد الآيتين السابقتين في سياق الاستدلال على وجهة النظر التي قدمها ، ففي النموذج الأول استدل بالآية الكريمة على

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٤ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف حين خرج من عمورية إلى مكة ، ومطلعها : مالي بعادية الأيام من قِبَلِ ... لم يَثْنِ كيدَ النوى كيدي ولا وجلِ

(٢) الكشاف : ٣ / ١١٤ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٦٥ . من قصيدة يمدح بها الواثق بالله ، ومطلعها :

وأبي المنازلِ إنها لشُجُونُ ... وعلى العُجومة إنها لَتُبينُ

(٤) ينظر : الكشاف : ٤ / ٣٠ . و : الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ٦٠ .

حرمانه من نيل العطاء ، فالاستعجال صفة طُبع عليها الإنسان ، أما في النموذج الثاني فاستدل بالآية الكريمة على أن وصول الخلافة إلى ممدوحه هي من تدبير الله عز وجل ، وفي هذا إصباغ صفة الشرعية على وصوله إلى الخلافة .

والملاحظ ندرة نماذج العقد الواردة في شعر أبي تمام، ويمكن إرجاع ذلك إلى صعوبة تصرف الشاعر في التراكيب، لأن الكلام المعقود يعدّ قرآناً كريماً، وفيه يتم التصريح بأن هذا القول لله تعالى ، بخلاف الكلام المقتبس الذي لا يعدُّ قرآناً [1]. ومن جانب آخر نجد أن طبيعة الشعر تصعّب الأمر على الشاعر ؛ بسبب طبيعة الشعر الإيقاعية المتمثلة في الوزن والقافية .

* * *

(١) ينظر : الاقتباس : ٢١ .

الخاتمة:

وبعد ، فإن هذه الدراسة قد اتجهت إلى دراسة أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام ، من خلال تسليط الضوء على ذلك الأثر الكبير في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة .

وقد وقفت عند ثلاث صور من صور ذلك الأثر، هي : التلميح والاقتباس والعقد .

وأظهرت الدراسة أن نماذج التمليح في شعر أبي تمام كانت الأكثر ، لأنه في هذه الصورة يكون الشاعر أكثر حرية في استثمار معاني القرآن الكريم .وتلتها نماذج الاقتباس ، لأن الكلام المقتبس لا يعدّ قرآنا ، مما يمنح الشاعر فرصة التصرف في المعاني. أما في العقد فيعد الكلام المعقود قرآناً ، فلا يستطيع الشاعر التصرف في المعاني .

وقد بينت الدارسة أن أبا تمام كان غالباً ما يحافظ على قداسة القرآن الكريم ومكانته ، لكن هناك نماذج لم يوفق فيها ، وقد أشارت إليها ، إذ أورد أبو تمام في تلك النماذج بعض أساليب القرآن الكريم ومعانيه في سياقات لا تليق بقداسة القرآن الكريم .

وأخيراً ، فإن حضور القرآن الكريم في شعر أبي تمام كان عاملاً مهماً من العوامل التي أسهمت في إغناء تجربته الشعرية ، وتزويدها بطاقات فنية وموضوعية ، ومنحها بُعداً دينياً ، وهي تجربة فريدة في تاريخ الشعر العربي : قديماً وحديثاً ، ما زالت تحتاج إلى دراسات أخرى ، تكشف عن جوانب غائبة في إبداعات أبي تمام الشعرية .

* * *

ثبت المصادر والمراجع:

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً – الكتب :

١– **أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره)** : نجيب البهبيتي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢) .

٢ – **الإتقان في علوم القرآن** : الإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق حامد البسيوني ، دار الفجر للتراث – القاهرة ، ط١ (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م) .

٣ – **أخبار أبي تمام** : لأبي بكر بن يحيى الصولي ، تحقيق محمد عبده عزّام وآخرين ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ط ٣ (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) .

٤– **استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر** : د . علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – ليبيا ، ط ١ (١٩٧٨م) .

٥– **استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث** : د . محمد منور ، النادي الأدبي بالرياض ، ط ١ (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧ م) .

٦ – **استيحاء التراث في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين : ٤٠٠ – ٥٣٩هـ)** : د. إبراهيم منصور الياسين ، عالم الكتب الحديث – الأردن ، ط ١ (٢٠٠٦م) .

٧– **الأطول** : إبراهيم بن محمد عصام الدين الحنفي ، دار الكتب العلمية – لبنان ، ط ١ (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) .

٨ – **الاقتباس (أنواعه وأحكامه : دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث)** : د . عبد المحسن العسكر ، مكتبة دار المنهاج – الرياض ، ط ١ (١٤٢٥هـ) .

٩– **الاقتباس من القرآن** : أبو منصور الثعالبي ، تحقيق . د إبتسام الصفار ، ود . مجاهد مصطفى بهجت ، دار الوفاء – مصر ، ط ١ (١٤١٢هـ) .

١٠– **أنوار الربيع في أنواع البديع** : ابن معصوم المدني ، تحقيق . شاكر هادي شاكر ، ط ١ (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨) .

١١– **الإيضاح في علوم البلاغة** : الخطيب القزويني ، شرح وتعليق د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني – لبنان ، ط٦ (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) .

١٢– **تاج العروس من جواهر القاموس** : الزبيدي ، تحقيق . إبراهيم الترزي ، دار إحياء التراث

العربي – لبنان . (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) .

١٣- **التفاعل النصي (التناصية : النظرية والمنهج)** : نهلة فيصل الأحمد . كتاب الرياض (العدد ١٠٤ – يوليو ٢٠٠٢م) . مؤسسة اليمامة الصحفية ١٤٢٣هـ .

١٤- **تفسير أبي السعود (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** : للإمام أبي السعود . دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٥- **التلخيص في علوم البلاغة** : الخطيب القزويني : ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي .دار الكتاب العربي – لبنان

١٦- **التناص في شعر الرواد** : د . أحمد ناهم . دار الآفاق العربية – القاهرة . ط ١ (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م) .

١٧- **الجامع لأحكام القرآن** : القرطبي . اعتنى به وصححه الشيخ هشام البخاري . دار عالم الكتب – الرياض . (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) .

١٨- **خصائص القصة الإسلامية** : د . مأمون فريز جرار . دار المنارة – جدة . (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .

١٩- شرح ديوان أبي تمام : الخطيب التبريزي . قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر . دار الكتاب العربي –لبنان . (١٤٢٥ه / ٢٠٠٥م) .

٢٠ – **شرح مشكلات ديوان أبي تمام** : المرزوقي . تحقيق د . عبد الله بن سليمان الجربوع . مكتبة التراث – مكة المكرمة . ط١ (١٤٠٧هـ /١٩٨٦م) .

٢١- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** : بهاء الدين السبكي . تحقيق د . خليل إبراهيم خليل . دار الكتب العلمية – بيروت . ط ١ (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) .

٢٢ – **على هامش الأدب والنقد** : علي أدهم . دار المعارف – مصر . ١٩٧٩م .

٢٣ – **علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع)** : د . بسيوني فيّود . مؤسسة المختار – القاهرة . ط ٣ (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) .

٢٤ – **الفن والصنعة في شعر أبي تمام** : د . محمود الربداوي . المكتب الإسلامي . الشركة المتحدة للتوزيع – بيروت . (١٣٩١هـ / ١٩٧١) .

٢٥ – **القاموس المحيط** : الفيروز أبادي . دار الكتاب العربي – لبنان .

٢٦ – **القصة بين التراث والمعاصرة**: د . طه عمران وادي . نادي القصيم الأدبي . ط ١ (١٤٢١هـ).

٢٧ – **قصص الأنبياء** : ابن كثير . تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي . دار المعرفة – لبنان . ط ٦

(١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م).

٢٨ – **الكشاف** : الزمخشري ، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية – لبنان ، ط٤ (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

٢٩ – **لسان العرب** : ابن منظور، دار بيروت – لبنان ، (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م).

٣٠ – مجمل اللغة : أحمد بن فارس ، تحقيق . زهير عبد المحسن ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

٣١ – **معجم مقاييس اللغة** : أحمد بن فارس ، تحقيق . عبد السلام هارون ، دار الجيل – لبنان .

٣٢– **نظرات في أحسن القصص** : د . محمد السيد الوكيل ، الدار الشامية – بيروت ، ودار القلم – دمشق ، ط١ (١٤١٥ه / ١٩٩٤م).

٣٣– **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** : فخر الدين الرازي ، تحقيق د . بكر شيخ أمين ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط١ (١٩٨٥م).

٣٤– **وجه الشعر (قراءة في مآخذ النقاد على معاني أبي تمام)** : د . عبد الله الوشمي ، مكتبة الرشد – الرياض ، ط١ (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).

* * *